الفصل الخامس عشر

القضاء المحتوم (١٠ فبراير سنة ١٩٠٨م)

كانت صحة الفقيد يعتريها التعب والاعتلال من الجهد الذي حملها إياه، وتدل رسائله الخاصة على أن صحته كانت في حاجة إلى الراحة والعلاج قبل الوفاة بعدة سنوات؛ ولكنه كان ماضيًا في سبيله، لا يبالي أن يحملها ما لا تطيق من التعب والعناء.

كتب إلى مدام «جولييت آدم» من فيشى في (٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠٣م) يقول:

«يجب أن أقضي معظم هذا الشهر في (التيرول) مع صديقي فريد بك الذي تشرفت بتعريفه إليك منذ سنتين؛ لأن الأطباء قد رأوا أنه من الواجب أن أمضي في الجبل بعض الزمن؛ إذ أخذ التعب يستولي على أعصابي، ولهم الحق في ذلك فإني لم أشفق على نفسي».

وكتب إليها في (٢٥ يونية سنة ١٩٠٥م) كتابًا قال فيه:

«إن العمل قد أضناني إلى حد أشعر معه بسرعة الحاجة إلى ترك الوسط الذي أعيش فيه، وكأن الطبيعة قد خالفت سنتها، إذ جعلت قوة روحي أكبر من قوة جسمي».

وقد سافر في يولية من تلك السنة إلى أوربا وقصد إلى لوزان وعرض نفسه على الدكتور بورجيه ليعالجه من مرض في أمعائه كان يشتد به أحيانًا فيؤلمه كثيرًا، وفي (صيف سنة ١٩٠٦م) ذهب إلى أوربا للاستشفاء والعلاج، وكان في حاجة قصوى إلى الراحة؛ ولكن حادثة دنشواي جعلته يقطع على نفسه سبيل الراحة والعلاج، فنهض نهضة الأسد، وبذل تلك الجهود الهائلة التي لا تصدر إلا عن أقوى الناس صحة وجسمًا. ولما سافر إلى باريس ولندن في (شتاء سنة ١٩٠٦م) يصحبه محمد بك فريد لاختيار محرري جريدتي ليتندار إجبسيان وذى إجبشيان ستندارد عاوده المرض في أثناء الرحلة، ولزم الفراش بباريس عدة أيام عاد بعدها إلى الجهاد والكفاح.

وفي (صيف سنة ١٩٠٧م) ذهب إلى فرنسا كعادته كل عام للاستشفاء والجهاد، وكانت هذه آخر رحلة له بأوربا، وكان يشعر بدبيب المرض يعتريه أحيانًا. أذكر المسيو أدولف ادرير (مراسل الاتيندار في باريس) أنه قابله وقتئذ بباريس فكان يقول له: «إني أشعر أن المرض قد دب إليَّ. ترى هل أعيش حتى أرى أول نجاح لجهودي؟ ليحصد الآخرون نتائج جهودي، ولكن ليكن لي وقت كاف للغرس والزرع، وكان هذا القول نذيرًا بخطورة مرضه، وقد قابله في شهر أغسطس في إفيان على بحيرة جنيف حيث قصدها للعلاج، وكان يلزمه أن يمكث بها واحدًا وعشرين يومًا للاستشفاء بحماماتها، ولكنه لم يمكث بها غير عشرة أيام لشعوره بضعف قواه، فسافر إلى أعالي جبال سويسرا، ولم يلبث بها غير بضعة أيام؛ لأنه لم يكن يستريح أينما توجه، قال المسيو ادرير: «وجاء شهر سبتمبر فعدت وإياه إلى باريس ولم أتركه حتى ساعة سفره، وكان دائمًا متوعك الصحة، فكنت أرى هذا الوجه الذي ترتسم عليه الشجاعة والذكاء والإقدام ممتقعًا شاحبًا، وقد سافر منهوكًا إلى حيث لا يعود إلينا أبدًا».

وقد عاد الفقيد إلى مصر في (أكتوبر ١٩٠٧م)، فقابله الشعب بأعظم مظاهرة قوبل بها في حياته، وأخذ يبذل الجهود الجبارة لتنظيم الحزب الوطني حتى إذا لم يكن في عمره متسع، لا يخشى عليه من الانحلال، وألقى خطبته الشهيرة بالإسكندرية يوم (٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧م)، وعلامات الضعف بادية على محياه، وقد لمحها أصدقاؤه الأقربون.

واشتدت به العلة قبل وفاته بثلاثة أشهر، ولكنه كان يغالب المرض ويجاهد جهاد الأبطال، ولما حان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطني يوم (٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧)، ترك سرير مرضه ونزل إلى ساحة دار اللواء حيث اجتمعت الجمعية العمومية، وألقى خطبته كأقدر وأقوى خطيب، حتى دهش السامعون بلاغته وبراعة إلقائه وقوة جنانه، مع ما كان باديًا عليه من الضعف. وكانت هذه آخر خطبة ألقاها رحمه الله، ثم اشتد به المرض عقب الاجتماع وعاد إلى غرفته مريضًا ولم يغادرها، وقد

بلغه في صباح اليوم التالي للاجتماع نبأ وفاة صديقه ونصيره الكبير «لطيف باشا سليم» أحد مؤسسي الحزب الوطني وأحد أعلام الحركة الوطنية، فجزع لوفاته جزعًا شديدًا، وازداد ما به من المرض حزنًا على صديقه العظيم.

وكان وهو على سرير المرض لا يدع العمل والتفكير؛ فقد أرسل وهو طريح الفراش قبل وفاته بخمسة أيام احتجاجًا برقيًّا قويًّا ضد تصريحات فاه بها السير إدوارد جراي في مجلس العموم البريطاني اتهم فيه المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتي، فرد عليه بأن مصر تماثل في الاستعداد للحكم الذاتي كثيرًا من الأمم الأوربية، وأن مصر ستظل تجاهد في سبيل حريتها واستقلالها حتى تنالهما.

الوفاة

وأخذ المرض يشتد ويلح عليه حتى أعيى الطب والأطباء، إلى أن حُمَّ القضاء، وأسلم الفقيد الروح في الساعة الرابعة من عصر يوم الإثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ (٨ محرم سنة ١٣٢٦هـ)، فانتشر نعيه بسرعة البرق في العاصمة والأقاليم، وطيرت الأسلاك البرقية خبره إلى الخارج، وملأ النبأ الفاجع جنبات وادي النيل، ويا لها من لحظة رهيبة حين فوجئنا بالنعي ونحن في مدرسة الحقوق، فقابلناه بالذهول والوجوم، وفاضت دموعنا حزنًا وأسى على الفقيد الذي كان لنا إمامًا وطنيًّا وأبًا روحيًّا، وما كاد يذيع نعيه حتى عمَّ الحزن أرجاء مصر، فكان له في كل نفس مناحة وفي كل قلب مأتم.

جنازة الزعيم

كان الاحتفال بتشييع جنازة مصطفى كامل يومًا مشهودًا في تاريخ الحركة الوطنية، كان مظهرًا رائعًا لشعور الوطن نحو الزعيم، انبعث من القلوب المكلومة والأفئدة الحزينة لفقده، أرادت الأمة أن تشيعه إلى مقره الأخير، وأن تظهر وفاءه لباعث نهضتها الوطنية، وموقظها من رقدتها، وأدرك الناس كافة حتى الذين كانوا لا

يؤمنون برسالة مصطفى كامل أن بطلها وزعيمها الشاب جدير حقًّا بتقدير الوطن، ولم يكن هذا الشعور مقصورًا على طبقة دون أخرى، بل تناول طبقات الأمة كافة، شمل المتعلمين وغير المتعلمين، وتناول الكبار والصغار، والرجال والنساء.

لم يكد يذاع خبر الوفاة بين طلبة المدارس حتى قرروا بمحض شعورهم اعتبار يوم تشييع الجنازة يوم حداد عام، عطلت فيه المدارس كلها حزنًا على الزعيم، وقرروا جميعًا الاشتراك في الجنازة التي حدد لها (عصر يوم الثلاثاء ١١ فبراير)، فسرنا فيها جميعًا مدفوعين بشعور واحد؛ شعور الحزن للفجيعة، والوداع للراحل العظيم.

ومع عظم منزلة الفقيد لم يكن متوقعًا أن تكون الجنازة بالضخامة والروعة والعظمة التي تجلت فيها، وكان مقررًا أن تسير من طريق سراي عابدين ومنها إلى باب الخلق فمدافن الإمام الشافعي. واختير هذا الطريق بدلًا من طريق السيدة زينب؛ التماسًا لاتساع الشوارع وطولها منعًا للزحام، ولكن بوادر الحال دلت على أن هذه الشوارع مهما اتسعت فإنها لا تكفي للجموع الزاخرة والألوف المؤلفة التي قدمت من نواحي العاصمة كافة، ومن الضواحي والثغور والأقاليم، واكتظت بها الشوارع المحيطة بدار اللواء قبل الموعد المحدد لتشييع الجنازة بأربع ساعات، فرؤي إلغاء القرار السابق واختيار أطول طريق للجنازة بين دار اللواء ومدافن الإمام؛ ليتسنى للجموع الحاشدة الاشتراك فيها، وهو طريق شارع الدواوين (نوبار باشا الآن) حيث كانت دار اللواء[1]، فشارع المدابغ، فشارع المناخ، فميدان الأوبرا، فشارع البوستة، فميدان العتبة الخضراء، فشارع محمد علي (القلعة الآن)، فميدان المنشية (صلاح الدين الآن)، ومنه إلى مدافن الإمام. وهذه المسافة لا تقل عن اثني عشر كيلومترًا. وخصصت حكمدارية بوليس العاصمة أكبر قوة من العساكر المشاة والفرسان وأضافت إليها عددًا كبيرًا من جنود الاحتياطي وقلم المرور؛ لتنظيم سير الجنازة،

(١) مكان مدرسة عابدين الابتدائية الآن.

وأوقفت عددًا آخر من البوليس في منافذ الطرق على طول الخط للمحافظة على النظام؛ ولكن كل تقدير لعظم الموكب كان أقل من الواقع.

وأخذ العظماء والكبراء والمثقفون وطبقات الأمة كافة يفدون إلى دار اللواء حتى غصت بهم على سعتها، وفاض جمعهم المتدفق إلى شارع الدواوين فملأه، ثم ضاق بجموعهم الزاخرة، فامتلأت بهم الشوارع المجاورة، وتعطل المرور من جميع الشوارع التي تتصل بطريق الجنازة، وأوقفت مركبات الترام في جميع خطوط العاصمة، وما حانت الساعة الثالثة بعد الظهر -وهو الوقت المحدد للبدء بسير الجنازة- حتى لم يبق موضع لقدم، وبدأت الجنازة في المسير، فتقدم المشهد الجنود الفرسان، فتلاميذ مدرسة «مصطفى كامل»، فالمدارس الابتدائية الأميرية والأهلية، فطلبة مدرسة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي، فالمدارس الثانوية -وهي التوفيقية والخديوية والسعيدية- وكثير من طلبة مدرسة رأس التين بالإسكندرية، ومدرسة عبد العزيز والمدرسة الإلهامية، ومدارس الأقباط الكبرى، وفيكتوريا والفرير، ثم المدارس العليا وهي: الحقوق والطب والمهندسخانة والزراعة والصنائع، ثم عساكر البولس وتلاميذ مدرسة البوليس، ثم نعش الزعيم مغطى بالراية المصرية، محمولًا على أعناق طلبة مدرسة الحقوق، مندوبين لذلك من قبل جميع طلبة المدارس العليا. وكانت كل مدرسة تحمل علمًا مجللًا بالسواد وفيه شارة تدل عليها، وقد صنعت هذه الرايات خصيصًا للاشتراك في الجنازة. كما أن مدرسة الزراعة رفعت أمامها شجرة مجللة بالسواد، ثم سار المشيعون خلف النعش، يتقدمهم المرحوم «محمد بك فريد»، وكان عددهم في بدء الجنازة يزيد على عشرات الألوف، إلا أن ذلك الجمع الهائل لم يكن إلا قطرة من بحر ممن انضم إلى الجنازة أثناء مسيرها، حتى زخرت الشوارع بالمشيعين. ولما تعذر سيرهم في موكب الجنازة وقف معظمهم على جانبي الشوارع من دار اللواء إلى مدفن الفقيد، وبلغ عدد المشيعين نحو (٢٥٠,٠٠٠) ربع مليون نفس؛ عدا الألوف الذين كانوا على جانبي الطريق، وفي نوافذ المنازل والفنادق وشرفاتها، وفوق أسطحها، وفي المنعطفات المترامية الأطراف.

وجملة القول: إن الشوارع الواقعة بين دار اللواء وقبر الفقيد كانت العين لا تقع فيها إلا على أجسام متراصة من المشيعين، أو كتعبير المسيو «ريمون كولرا» مدير جريدة (إيجبت) في وصف الجنازة: «إن شوارع القاهرة فيما بين دار الفقيد وقبره كانت مفروشة ببساط أحمر، إشارة إلى الطرابيش الحمراء، ومع اشتداد هذا الزحام الذي لم يسبق له نظير، كان النظام مستتبًّا، والسكون شاملًا رهيبًا، ولم يكن يسمع أثناء سير الجنازة سوى بكاء الباكين والباكيات وزفراتهم، ونواحهم الصادر من أعماق قلوبهم، وكلهم يبكي شباب الزعيم ووطنيته، فكان هذا الاحتفال الرهيب أعظم وأروع جنازة في تاريخ مصر الحديث، وصفها المرحوم قاسم أمين بقوله: «١١ فبراير سنة ١٩٠٨م يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل، هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق؛ المرة الأولى كان يوم تنفيذ حكم دنشواي، أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب «اللواء» فقد ظهر ذلك الشعور ساطعًا في قوة جماله، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها في العاصمة، ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر، هذا الإحساس الجديد، هذا المولود الحديث الذي خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذي يبتسم في وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذي يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة، هو المستقبل».

سارت الجنازة حتى جامع «قيسون» بشارع محمد علي حيث أقيمت الصلاة على الفقيد، ثم تابعت سيرها في بحر زاخر من الجموع والدموع حتى مدفن الزعيم بقرافة الإمام الشافعي، واستمر سيرها أربع ساعات، لما وصلت ساحة المدفن كانت على رحبتها غاصة بفريق من المشيعين ممن سبقوا الموكب تفاديًا من الزحام وتعذر دخول الجموع الحاشدة إلى رحبة المدفن، وأبى طلبة المدارس إلا أن يدخلوا ولما لم يكن ذلك ميسورًا لاشتداد الزحام، انتدبت كل مدرسة وفدًا ينوب عنها، وكان حملة النعش منهم قد كثر عددهم، وأبوا إلا أن يظلوا حامليه داخل المدفن حتى حافة الضريح الطاهر، فأجيبوا إلى طلبهم بعد تذليل الصعاب في إجابته؛ إذ كان الزحام الهائل داخل رحبة المدفن يحول دون ذلك.

وعندما اجتاز النعش ساحة المدفن وأدخل مكان الضريح ووضع على حافته ضجَّ المكان بالبكاء والنحيب، وفي هذا الوقت وقف الشاعر الكبير «إسماعيل صبري باشا» -وكان صديقًا حميمًا للزعيم- ليلقي كلمة الوداع، فألقى البيت الأول منها وهو:

أداعي الأسى في مصر ويحك داعيا هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا

ولم يكد يلقيه حتى ظهر عليه التأثر الشديد والإعياء، ولم يتم رثاءه.

قصيدة حافظ إبراهيم

ثم قام شاعر النيل «حافظ إبراهيم» وألقى قصيدته الرائعة في رثاء الفقيد، قال:

أيا قبرُ هذا الضيف آمال أمة فكبر وهلل والقَ ضيفك جاثيا
عزيزٌ علينا أن نرى فيك مصطفى شهيد العلا في زهرة العمر ذاويا
أيا قبر لو أنا فقدناه وحده لكان التأسي من جوى الحزن شافيا[1]
ولكن فقدنا كل شيء بفقده وهيهات أن يأتي به الدهر ثانيا
فيا سائلي أين المروءة والوفا وأين الحجا والرأي؟ ويحك ها هيا
هنيئًا لهم[2] فليأمنوا كل صائح فقد أُسكت الصوتُ الذي كان عاليا
ومات الذي أحيا الشعور وساقه إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا[3]
مدحتكَ لما كنت حيًّا فلم أُجدْ وإني أجيدُ اليومَ فيك المراثيا
عليك[4]، وإلا ما لذا الحزن شاملًا وفيك، وإلا ما لذا الشعب باكيا

(١) التأسي بمعنى الصبر على المصيبة.
(٢) يريد الإنجليز.
(٣) استحيا: أي أحيا.
(٤) عليك: أي عليك الحزن.

يموت المداوي للنفوس ولا يرى ... لما فيه من داء النفوس مداويا
وكنا نيامًا حينما كنت ساهدًا[١] ... فأسهدتنا حزنًا وأمسيتَ غافيا[٢]
شهيد العلا، لا زال صوتك بيننا ... يرنُّ كما قد كان بالأمس داويا
يهيبُ بنا: هذا بناءٌ أقمته ... فلا تهدموا بالله ما كنتُ بانيا
يصيح بنا: لا تشعروا الناس أنني ... قضيتُ وأن الحيَّ قد بات خاليا
يناشدنا بالله ألا تفرقوا ... وكونوا رجالًا لا تسروا الأعاديا
فروحي من هذا المقام مطلة ... تشارفكم[٣] عني وإن كنت باليا
فلا تحزنوها بالخلاف فإنني ... أخاف عليكم في الخلاف الدواهيا
أجل أيها الداعي إلى الخير إننا ... على العهدِ ما دمنا فنمْ أنت هانيا
بناؤك محفوظٌ وطيفك ماثلٌ ... وصوتك مسموعٌ وإن كنت نائيا
عهدناك لا تبكي وتنكر أن يُرى ... أخو البأس في بعض المواطن باكيا
فَرَخص لنا اليوم البكاء وفي غد ... ترانا كما تهوى جبالًا رواسيا
فيا نيلُ إن لم تجْرِ بعد وفاته ... دمًا أحمرًا لا كنتَ يا نيلُ جاريا
ويا (مصر) إن لم تحفظي ذكر عهده ... إلى الحشر لا زال انحلالك باقيا
ويا أهل (مصر) إن جهلتم مصابكم ... ثقوا أن نجم السعد قد غار هاويا
ثلاثون عامًا[٤] بل ثلاثون ذرة ... بجيد الليالي ساطعات زواهيا
ستشهد في التاريخ أنك لم تكن ... فتى مفردًا بل كنت جيشًا مغازيا

---

(١) ساهدًا: ساهرًا.

(٢) غافيًا: أي نائمًا.

(٣) تشارفه: أي تنظر إليه من علو.

(٤) إشارة إلى عُمْر الفقيد، وهو رقم تقريبي؛ لأنه توفي في الرابعة والثلاثين من عمره.

ثم وقف المرحوم «أحمد أفندي حلمي» أحد محرري اللواء ومن خاصة تلاميذ الزعيم، وألقى كلمة مؤثرة في وداعه، ثم أنزل جثمان الفقيد إلى مثواه الأخير بين الضجيج والنحيب، ووضع المشيعون الأزهار والرياحين على قبره، وعادت الجموع تبكي زعيم الحركة الوطنية، ولبست العاصمة في ذلك اليوم الرهيب ثوب الحداد العام.

رثاء الزعيم وحفلات التأبين

اهتزت البلاد وروعت لوفاة الزعيم؛ فجادت قرائح الشعراء والأدباء والكتاب بالمراثي الصادرة من أعماق القلوب، وممن رثاه من أعلام الأدب «شوقي بك» أمير الشعراء، وكان من أصدق أصدقائه وأكثرهم إعجابًا به، وقد حزن عليه حزنًا شديدًا، وترجم عن شعوره بقصيدة تجلَّت فيها حكمة الشعر وروعة البلاغة، نشرت يوم (٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨م) عقب وفاة الزعيم بثلاثة عشر يومًا، فأثرت في النفوس تأثيرًا عميقًا، وجددت أحزان الأمة، ننشرها هنا لأنها قطعة من تاريخ الزعيم، وصورة حية بريشة أمير الشعراء.

رثاء شوقي لمصطفى كامل (الحياة في الموت)

المشرقان عليك ينتحبان ... قاصيهما في مأتم والداني
يا خادمَ الإسلام أجر مجاهد ... في الله من خلد ومن رضوان
لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى ... في الزائرين ورُوِّع الحرمان
السكة الكبرى[1] حيال رباهما ... منكوسة الأعلام والقضبان
لم تألُها عند الشدائد خدمة ... في الله والمختار والسلطان
يا ليت مكة والمدينة فازتا ... في المحفلين بصوتك الرنان
ليرى الأواخر ذاك ويسمعوا ... ما غاب من قس ومن سحبان[2]
جار التراب وأنت أكرم راحل ... ماذا لقيت من الوجود الفاني
أبكي صباك ولا أعاتب من جنى ... هذا عليه كرامة للجاني[3]
يتساءلون أبالسلال قضيت أم ... بالقلب أم هل مت بالسرطان
الله يشهد أن موتك بالحجا ... والجد والإقدام والعرفان
إن كان للأخلاق ركن قائم ... في هذه الدنيا فأنت الباني
بالله فتِّش عن فؤادك في الثرى ... هل فيه آمال وفيه أماني
وجدانك الحي المقيم على المدى ... ولرب حيٍّ ميت الوجدان
الناس جار في الحياة لغاية ... ومظلل يجري لغير عنان
والخلدُ في الدنيا وليس بهين ... عليا المراتب لم تتح لجبان
فلو أن رسلَ الله قد جبنوا لما ... ماتوا على دين ولا إيمان

---

(١) يريد سكة حديد الحجاز.

(٢) قس وسحبان: خطيبان من أبلغ خطباء العرب.

(٣) الجاني إشارة إلى الفقيد؛ أي أنه ضحى بحياته وشبابه في سبيل مصر.

المجد والشرف الرفيع صحيفة ... جُعلت لها الأخلاق كالعنوان
وأحبُّ من طول الحياة بذلة ... قصر يريك تقاصر الأقران
دقاتُ قلب المرء قائلة له ... إنَّ الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذكر للإنسان عمر ثاني
للمرء في الدنيا وجم شئونها ... ما شاء من ربح ومن خسران
فهي القضاء لراغب متطلع ... وهي المضيق لمؤثر السلوان
الناس غاد في الشقاوة رائح ... يشقى له الرحماء وهو الهاني
ومنعَّم لم يلق إلا لذة ... في طيها شَجنٌ من الأشجان
فاصبر على نُعمى الحياة وبؤسها ... نعمى الحياة وبؤسها سيان
يا طاهر الغدوات والروحات ... والخطرات والإسرار والإعلان
هل قام قبلك في المدائن فاتح ... غاز بغير مهنَّد وسنان
يدعو إلى العلم الشريف وعنده ... أن العلوم دعائم العمران
لفُّوك في علم البلاد منكسًا ... جزع الهلالُ على فتى الفتيان
ما احمرَّ من خجل ولا من ريبة ... لكنما يبكي بدمع قاني[1]
يُزْجُون نعشك في السناء وفي السنا ... فكأنما في نعشك القمران
وكأنه نعش الحسين «بكربلا» ... يختال بين بكى وبين حنان
في ذمة الله الكريم وبره ... ما ضم من عرف ومن إحسان
ومشى جلال الموت وهو حقيقة ... وجلالك المصدوق يلتقيان
شقت لمنظرك الجيوب عقائل ... وبكتكَ بالدمع الهتون غواني
والخلقُ حولك خاشعون كعهدهم ... إذ ينصتون لخطبة وبيان

(١) قاني أحمر.

يتساءلون بأي قلبٍ ترتقي ... بعد المنابر أم بأي لسان
فلو أن أوطانًا تُصوِّر هيكلًا ... دفنوك بين جوانح الأوطان
أو كان يُحمل في الجوارح ميت ... حملوك في الأسماع والأجفان
أو صيغ من غر الفضائل والعلى ... كفن لبست أحاسن الأكفان
أو كان للذكر الحكيم بقية ... لم تأت بعد رثيت في القرآن
ولقد نظرتك والردى بك محدق ... والداء ملء معالم الجثمان
يبغي ويطغى والطبيب مضلل ... قَنِطٌ وساعات الرحيل دواني
ونواظرُ العوَّاد عنك أمالها ... دمعٌ تعالج كتمه وتعاني
تملي وتكتب والمشاغل جمَّة ... ويداك في القرطاس ترتجفان
فهششتَ لي حتى كأنك عائدي ... وأنا الذي هدَّ السقامُ كياني
ورأيت كيف تموت آساد الشرى ... وعرفت كيف مصارع الشجعان
ووجدتُ في ذاك الخيال عزائمًا ... ما للمنون يدكهن يدان
وجعلت تسألني الرثاء فهاكه ... من أدمعي وسرائري وجناني
لولا مغالبةُ الشجون لخاطري ... لنظمتُ فيك يتيمة الأزمان
وأنا الذي أرثي الشموس إذا هوت ... فتعود سيرتها من الدوران
قد كنت تَهتف في الورى بقصائدي ... وتجل فوق النيرات مكاني
ماذا دهاني يوم بِنْت فعقني ... فيك القريض وخانني إمكاني
هَوِّنْ عليك فلا شمات بميت ... إنَّ المنية غاية الإنسان
من للحسود بميتة بُلغتها ... عزت على كسرى أنو شروان
عوفيت من حَرَب الحياة وحرْبها ... فهل استرحت أم استراح الشاني
يا صَب مصر ويا شهيد غرامها ... هذا ثرى مصر فنمْ بأمان

اخلـع عـلى مـصر شـبابك غاليًـا ... والـبس شـباب الحـور والولـدان
فلعـل مـصرًا مـن شـبابك ترتـدي ... مجـدًا يتيـه بـه عـلى البلـدان
فلـو أن بـالهرمين مـن عزماتـه ... بعـض المـضاء تحـرك الهرمـان
عَلَّمـتَ شـبان المـدائن والقـرى ... كيـف الحيـاة تكـون في الـشبان
مـصر الأسـيفة ريفهـا وصـعيدها ... قـبر أبـر عـلى عِظامـك حـاني
أقـسمت أنـك في الـتراب طهـارة ... ملـك يهـاب سـؤاله الملكـان

حفلة التأبين الكبرى (يوم الأربعين)

أقام الحزب الوطني حفلة تأبين كبرى للفقيد يوم الأربعاء لوفاته (الجمعة ٢٠ مارس سنة ١٩٠٨م)، وألف لجنة لتنظيمها برئاسة المرحوم محمد بك فريد، وقد تجدد الحداد على الفقيد في ذلك اليوم، فكنت ترى معظم المحال التجارية مغلقة وعليها علامات الحداد، والأعلام منكسة تجللها شارات السواد، وعربات الركوب موقدة المصابيح مجللة بأشرطة سوداء، والشباب من فتيان وفتيات لابسين شارات الحداد. وكان محددًا لحفلة التأبين الساعة الثالثة عصر ذلك اليوم بالساحة الواسعة التي تحيط بضريح الزعيم بمدافن الإمام الشافعي، وكان البرنامج أن يتألف موكب الأربعين ويسير بنظام من دار اللواء بشارع الدواوين (نوبار باشا الآن) إلى مدفن الزعيم، وهناك ينتظره المدعوون للحفلة، فمنذ أخذت وفود الطلبة وجموع الوطنيين يحتشدون في الشوارع المجاورة لدار اللواء، ثم انتظم منهم موكب رهيب يشبه في عظمته وعدده موكب تشييع الجنازة، وسار في نفس طريقها إلى مدافن الإمام، وتقدمه طلبة المدارس الابتدائية، ثم الثانوية، ثم الخصوصية، ثم العالية، ثم الأزهر، ولكل مدرسة علمها، ثم جمعيات الشبيبة وجماعات الصناع وجمعيات الأقاليم وجمعية النهضة الوطنية ببولاق، تتلوها عربة الفقيد مجللة بالسواد لا يركبها أحد علامة على فقد صاحبها العظيم، ثم الوفود من أحياء العاصمة والأقاليم. وبدأ سير الموكب في الساعة الأولى

بعد الظهر تمامًا، وسار بنظام رهيب حتى وصل إلى المدفن في الساعة الثالثة والدقيقة (٤٥)، فكانت مظاهرة حداد قومية لم يسبق لها مثيل. وقد أعد الحزب الوطني مكان الاحتفال بعد أن أزال البناء الذي في تلك الساحة لكي يتسع لعشرة آلاف من المدعوين، وعند الساعة الثالثة بدأ الاحتفال قبل مجيء الموكب، فافتتح بتلاوة ما تيسر من القرآن الكريم.

خطبة محمد بك فريد

وكان أول الخطباء المغفور له محمد بك فريد رئيس الحزب الوطني، فألقى الخطبة الآتية:

«إخواني الأعزاء:

إن اجتماعكم هذا لأكبر دليل وأسطع برهان على أن رئيسنا المرحوم مصطفى كامل باشا لم يمت. نعم لم تمت من جمعت كلمته هذه الألوف المؤلفة من الناس؛ بل هذه الملايين العديدة من الخلائق، بعد أن كنت لا ترى اثنين يتفقان على عمل ما، حتى ضرب بتخاذلنا المثل وقالوا: إنَّ المصريين اتفقوا على أن لا يتفقوا. ولكن الفقيد بثَّ هذه الروح الجديدة بين جميع طبقات الأمة المصرية بثباته وعدم تزعزع عزيمته أمام ما صادفه من العقبات ولاقاه من الصعوبات التي أنا أعلم بها من غيري.

وضع مصطفى كامل نصب عينيه خدمة مصر وإيقاظها من سباتها منذ كان بمدرسة الحقوق الخديوية؛ بل منذ كان بالمدارس الثانوية، وسار في طريقه الشريف - طريق التفاني في خدمة البلاد- لا يلوي يمنة ولا يسرة، حتى توج الله أعماله بالنجاح ورأى غرسه يانعًا قبل أن يترك هذا العالم الفاني.

نعم إن مصطفى كامل لم يمت بل روحه ترفرف علينا، وتنظر إلينا من الملكوت الأعلى تشجعنا على السير في الطريق المستقيم الذي رسمه لنا، ولن نترك هذا الغراس

الشريف؛ غراس الوطنية الحقة يزول أو يعوقه أي عائق عن النمو، ولو فعلنا ذلك لارتكبنا خيانة نحو الوطن المحبوب.

إن هذه الفكرة السامية، فكرة خدمة الوطن حتى الممات، كانت تملأ جنانه ووجدانه منذ بدأ في عمله، فقد كتب لي جوابًا في (٢١ أكتوبر سنة ١٨٩٦م) من فيينا قال في آخره: إني مستمر إلى يوم الوفاة على خدمة بلادي، وإن غيرتي على حقوقها تزداد يومًا بعد يوم، ولا يقلل من عزمي تهاون بقية المصريين أبدًا؛ بل إني سائر إلى الأمام حتى أنزل القبر، وبعد موتي يكون على روحي واجب الاستمرار وواجب دعوة الأحياء إلى العمل، أو إن شئت قلْ: واجب إحياء من هم أموات في قالب أحياء.

لقد نجح مصطفى كامل في عمله، فقد أصبح القوم كلهم أحياء، أصبح القوم كلهم متفقين على التعاون والتضافر على خدمة هذه البلاد العزيزة. فاستمروا يا إخواني في هذا الطريق السوي، ولا يقعدنكم عن العمل تثبيط بعض ضعفاء العزيمة، أو انتقاد بعض الجاهلين والمتجاهلين لمقاصدنا الشريفة، فإن سرنا بعزيمة واتحاد لا يلبث أهل القطر أجمعهم أن يصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضنا بعضًا، ونلنا ما كان يسعى إليه فقيدنا.

وكتب إلي في جواب آخر من بودابست في (٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦م) ردًّا على من كانوا ينكرون عليه فائدة عمله قائلا: «ولكنهم جهلوا أن لي روحًا هي من نور الحرية الساطعة لا تستطيع الحياة في ظلمات الظلم والاستبداد، جهلوا أن روحي تنادي إلى يوم الممات ما شاكلها من الأرواح الشريفة لتتحد معها على القيام بهذا العمل الشرعي الحق، وماذا أقول لك وأنت تحس بما لا يستطيع القلم كتابته، وأنت إذا تلوت هذه الأسطر سالت الدموع من عينيك، ماذا أكتب وأنا كلما شاهدت هذه البلاد وشاهدت فيها علم الوطنية عاليًا مرفوعًا ازداد لهيب فؤادي وتفتت مني الكبد.

هذه أقواله من نحو اثني عشر عامًا، فحق لمصر أن تبكيه بدل الدموع دمًا، ووجب عليها أن تقيم له التماثيل في كل المدن الكبرى، ووجب على كل مصري أن يضع صورته أمامه ليقتبس نور الحرية من خدماته التي كانت أشعتها تخترق الحجب فتصل إلى أعماق القلوب، ووجب علينا أن نستنير بما كتبه من المواعظ والحكم الوطنية. نعم إن صورته لن تغيب عنا، بل هي منقوشة على صفحات قلوبنا، كما أن أقواله مكتوبة بأحرف من نور على أفئدتنا، ولكن فائدة التماثيل هي لمن يأتي بعدنا ولم ير بعينه ذلك الذكاء ولا هاتيك الشهامة التي كانت تنبعث من محياه فتحرك القلوب الجامدة، لقد شهد له ألد أعدائه بقوة التأثير بخلابة منطقه وقوة حجته ونفوذ روحه إلى نفس المتكلم، فيخرج من لدنه مقتنعًا معترفًا بفضله إن لم يكن جهرًا فسرًا.

إخواني الأعزاء:

لقد اجتمعتم هنا لتأبين المرحوم مصطفى كامل وذكر فضائله نظمًا ونثرًا، ولكن أنى للشعراء والأدباء أن يوفوه حقه من الثناء والمديح، وهو من النوابغ الذين يبعثهم الله كل حقبة من الزمان لإحياء موات الأمم والقيام بواجب إحياء من هم أموات في قالب أحياء.

إن أحسن تأبين لفقيدنا المرحوم هو أن نسير في الطريق السوي الذي رسمه ومهده لنا، وأن نضم صفوفنا حتى لا يدخل بينها منافق أو مخاتل، ونسير كرجل واحد إلى فتح قلعة الحرية وامتلاك أبراجها، وتحصينها بالنظام النيابي الدستوري حتى لا يمكن إخراجنا منها ثانيًا. إن أحسن تأبين لفقيدنا العزيز ترتاح إليها روحه الشريفة الطاهرة هو أن نبرهن للعالم أجمع أن مصطفى كامل لم يمت وأن روحه اتحدت بروح كل فرد منا؛ فأصبحنا كلنا مصطفى كامل، ونكون بذلك قد حققنا ما كتبه لي بالجواب السابق ذكره (وبعد موتي يكون على روحي واجب الاستمرار وواجب دعوة الأحياء إلى العمل).

فيا أيها الفقيد المحبوب، ويا أيتها الروح الطاهرة، قد تحقق ما كنت تؤمله وما قضيت زهرة شبابك للوصول إليه، وأصبحت الأمة بعناصرها الثلاثة مسلمين ومسيحيين وإسرائيليين كلها مجتمعة كرجل واحد متحدة الأفكار والقلوب، لا يمنعها من الحصول على رغائبها مانع، ولا تقف في وجهها قوة، فقوة الأمة فوق كل قوة، وأمتنا المصرية قد شعرت بقوتها وتركت اليأس ظهريًّا اتباعًا لقوله رحمه الله: (لا معنى للحياة مع اليأس، ولا معنى لليأس مع الحياة).

إخواني:

قال تعالى في محكم التنزيل: {وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا فتذهب ريحكم}، وقال تعالى: {واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا}».

قصيدة إسماعيل باشا صبري

وبعد أن انتهى فريد بك من خطبته تلاه الشاعر الكبير «إسماعيل صبري» وطلب إلى حافظ إبراهيم أن يتلو قصيدته، فتلاها بصوته الجهوري؛ قال:

أجلْ أنا من أرضاك موافي ... ويرضيك في الباكين لو كنت واعيا
وقلبي ذاك المورد العذب لم يزل ... كما ذقت منه الحب والود صافيا
سِوى أنه يعتاده الحزن كلما ... رآك عن الحوض المهدد نائيا
ويعثر في بعض الخطوب إذا ... إلى بعض ما يهوى فيرجع داميا
وإن رامه سرب المسرات لم يجد ... محلًّا به من لاعج الهم خاليا
ألا علّلاني بالتعازي وأقنعا ... فؤادي أن يرضى بهنَّ تعازيا
وإلا أعيناني على النوح والبكا ... فشأنكما شأني وما بكما بيا
وما نافعي أن تبكيا غير أنني ... أحب دموعَ البر والمرء وافيا
أيا (مصطفى) تالله نومُك رابنا ... أمثلك يرضى أن ينام الليالي

تكلم فإن القوم حولك أطرقوا ... وقلْ يا خطيب الحي رأيك عاليا
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة ... تخالك أعواد المنابر فانيا
وتبكيك لولا أن فيها بقية ... تعللها من ذلك الصوت داويا
فهل ألفت ما بين جفنيك والكرى ... مخالفة أم قد أمنت الأعاديا
فقدناك فقدان الكمي سلاحه ... وساري الدياجي كوكب القطب هاديا
وبتنا وقد باتت رفاقك في الثرى ... سقاها الحيا[1] تستبطئ الدمع هاميا
ولولا تراث من أمانيك عندنا ... كريمٌ بكينا إذا بكينا الأمانيا
طواك الردى طي الكتاب تضمنت ... صحائفه من كل فخر معانيا
مطاء إذا البيض انتمت لأصولها ... غضبنا إذا سمَّاك قومٌ يمانيا
ورأي يجلي اليأس واليأس ضارب ... على الأفق ليلًا فاحم اللون راجيا
إذا ما تقاضينا ولم تك بيننا ... ذكرناهما[2] حتى تجيد التقاضيا
فليتك إذ أعييت كل مساجل ... قنعت فلم تعي الطبيب المداويا
وليتك إذ ناضلت عن مصر لم تفض ... مع الحبر قلبًا يعلم الله غاليا
لقد ضاع إخلاص الطبيب وحذقه ... سدى فبكى الذي كان راجيا
ولم تنتهز تلك العقاقير فرصة ... ترى الناس فيها فصل (بقراط) باديا
يحيك سيفًا بات في التراب مغمدًا ... تقلده فيما مضى الحقُّ ماضيا

قصيدة حافظ إبراهيم

ثم ألقى شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدته، قال:

نثروا عليك نوادي الأزهار[1] ... وأتيت أنثر بينهم أشعاري

(١) المطر.
(٢) أي ذكرنا المضاء والرأي.

زين الشباب وزين طلاب العلا ... هل أنت بالمهج الحزينة داري
غادرتنا والحادثات بمرصد ... والعيش عيش مذلة وإسار
ما كان أحوجنا إليك إذا عدا ... عاد وصاح الصائحون: بدار
أين الخطيب وأين خلاب النهى؟ ... طال انتظار السمع والأبصار
بالله ما لك لا تجيب مناديًا ... ماذا أصابك يا أبا المغوار؟
قمْ وامح ما خطَّت يمين (كرومر) ... جهلًا بدين الواحد القهار
قد كنت تغضب للكنانة كلما ... همت وهم رجاؤها بعثار
غضب التقي لربه وكتابه ... أو غضْبة (الفاروق للمختار) (٢)
قد ضاق جسمك عن مداك فلم يطق ... صبرًا عليك وأنت شعلة نار
أودى به ذاك الجهاد وهده ... عزم يهد جلائل الأخطار
لعبت يمينك باليراع فأعجزت ... لعب الفوارس بالقنا الخطار (٣)
وجريت للعلياء تبغي شأوها ... فجرى القضاء وأنت في المضمار
أوكلما هز الرجاء مهندًا ... بدرت إليه غوائل الأقدار
عز القرار علي ليلة نعيه ... وشهدت موكبه فقر قراري (٤)
وتسابقت فيه النعاة فطائر ... بالكهرباء، وطائر ببخار
شاهدت يوم الحشر يوم وفاته ... وعلمت منه مراتب الأقدار
ورأيت كيف تفي الشعوب رجالها ... حق الولاء وواجب الإكبار
تسعون ألفًا حول نعشك خشع ... يمشون تحت (لوائك) السيار

(١) نوادي الأزهار: أي الرطبة المبللة بالندى.
(٢) الفاروق: عمر بن الخطاب، والمختار: النبي عليه الصلاة والسلام.
(٣) القنا: الرماح.
(٤) أي استقرت نفسه بعد أن شهد وفاء الأمة للفقيد في موكب الجنازة.

خطُّوا بأدمعهم على وجه الثرى ... للحزن أسطارًا على أسطار
آنًا يوالون الضجيج كأنهم ... ركب الحجيج بكعبة الزُّوار
وتخالهم آنًا لفرط خشوعهم ... عند المصلى ينصتون لقاري
غلت الخشوع عليهم فدموعهم ... تجري بلا كلح[1] ولا استنثار
قد كنت تحت دموعهم وزفيرهم ... ما بين سيل دافق وشرار
أسعى فيأخذني اللهيب فأنثني ... فيصدني متدفق التيار
لو لم أَلُذْ بالنعش أو بظلاله ... لقضيت بين مراجل وبخار
كم ذات خدرٍ يوم طاف بك الردى ... هتكت عليك حرائر الأستار
سفرت تودع أمة محمولة ... في النعش لا خبرًا من الأخبار
أمنت عيون الناظرين فمزقت ... وجه الخمار فلم تَلُذْ بخمار[2]
قد قام ما بين العيون وبينها ... سِتْر من الأحزان والأكدار
أدْرجت في العلم الذي أصفيته ... منك الوداد فكان خير شعار
علمان[3] من فوق الرءوس كلاهما ... في طيِّه سرٌّ من الأسرار
ناداهما داعي الفراق فأمسيا ... يتعانقان على شفير هاري
تالله ما جزع المخب ولا بكى ... لنوى مروعة وبعد مزار
جزع (الهلال) عليك يوم تركته ... ما بين حر أسى وحر أوار[4]
متلفتًا متحيرًا متخيرًا ... رجلًا يناضل عنه يوم فخار
إن الثلاثين التي بك فاخرت ... باتت تقاس بأطول الأعمار

---

(١) الكلح: العبوس؛ أي تجري الدموع بطبيعتها بلا عبوس.
(٢) الخمار: أي الحجاب.
(٣) يريد بالعلمين الفقيد؛ فهو علم الوطنية، والثاني علم مصر.
(٤) الأسى: الحزن، والأوار: الظمأ والتعطش؛ أي التعطش إلى الفقيد.

ضمت إلى التاريخ بضع صحائف ... بيضاء مثل صحائف الأبرار
شبهتهن بنُقْطة عِطرية ... وسعتْ محصل روضة معطار[١]
خلفتها كالمشق يحذو حَذْوها ... راجي الوصول ومقتفي الآثار
ماذا على الساري -وهن[٢] منائر- ... لو سار بين مجاهل وقفار
ما زلت تختار المواقف وعرة ... حتى وقفت لذلك الجبار[٣]
وهدمت سورًا قد أجاد بناءه ... فرعون[٤] ذو الأوتاد والأنهار
ووصلت بين شكاتنا ومشايخ ... في (البرلمان) أجلة أخيار
كشفوا العطاء عن العيون فأبصروا ... ما في الكنانة من أذى وضِرار
نبذوا كلام (اللورد) حين تبينوا ... حَنَقَ المغيظ ولهجة الثرثار
ورماهم بمجلدين[٥] رموهما ... في رُتبة الأصفار لا الأسفار
واهًا على تلك المواقف إنها ... كانت مواقف ليث غابٍ ضاري
لم يلوه عنها[٦] الوعيد ولا ثنى ... من عزمه قولُ المريب: حذار
فاهنأ بمنزلك الجديد ونمْ به ... في غبطةٍ وانعمْ بخير جوار
واستقبل الأجر الكبير جزاء ما ... ضحيت للأوطان من أوطار
نعم الجزاء ما بُلغته ... في منزليك[٧] ونعم عُقبى الدار

(١) الروضة المعطار: هي الكثيرة الأزهار والرياحين.
(٢) هنَّ إشارة إلى الثلاثين عامًا؛ أي ماذا على الساري في المجاهل والقفار إذا اهتدى بنور هذه الأعلام.
(٣) يريد بالجبار: اللورد كرومر الذي كان حكمه مطلقًا في مصر.
(٤) شبه اللورد كرومر بفرعون.
(٥) يريد بالمجلدين كتاب مصر الحديثة للورد كرومر.
(٦) أي لم يصرفه عن مواقفه الوعيد والتهديد.
(٧) أي الدنيا والآخرة.

ثم وقف المسيو «كولرا» رئيس تحرير جريدة الإيجبت وألقى كلمة تأبين بالفرنسية بالنيابة عن الصحافة الأوربية، وهنا أقبلت طلائع الموكب، فاشتد الزحام وعظم التلاحم، وامتلأت المنافذ بالقادمين، ولما ضاق المكان وعظم تدافع الجماهير قررت لجنة التأبين اختتام الاحتفال خوفًا من وقوع حادث من شدة الزحام؛ إذ اختلطت جموع الموكب بالحاضرين، ونشرت اللجنة خطب المؤبنين وقاصدئهم بحسب ترتيب ورودهم في البرنامج: محمد فريد بك، إسماعيل باشا صبري، أحمد لطفي السيد بك، المسيو كولرا مندوب الصحافة الأوربية، محمود بك أبو النصر، قصيدة شاعر النيل حافظ إبراهيم، كلمة الأستاذ أخنوخ فانوس، قصيدة محمد بك أبو شادي، كلمة مندوب طلبة المدارس (الأستاذ محمود خيرت)، كلمة الشيخ مصطفى القاياتي عن الأزهر، كلمة الأستاذ مرقس بك حنا (باشا)، قصيدة الدكتور السيد بك رفعت، قصيدة شاعر القطرين خليل بك مطران (وقد نشرناها فيما يلي)، قصيدة حسن بك حمدي، قصيدة الشيخ سليمان علي مطيريد شيخ قبيلة عربان الضعفاء ببني سويف، كلمة محمد أفندي لمعي المهندس، قصيدة السيدة زينب فواز عن السيدات، كلمة إبراهيم أفندي فهمي عبد الهادي التلميذ بمدرسة مصطفى كامل، كلمة علي بك فهمي كامل شقيق الفقيد.

هذا وقد أقيمت للفقيد حفلات تأبين عدة في مختلف الأحياء والعواصم والأقاليم.

قصيدة خليل مطران (حق الوطن وحق الإخاء)

أعلى مكانتك الإله وشرفا ... فانعم بطيب جواره يا (مصطفى)
اليوم فُزت بأجر ما أسلفته ... خيرًا وكلٌّ واجد ما أسلفا
وجُزيت من فاني الوجود بخالد ... ومن الأسى الماضي بمقتبل الصفا
أعظم بيومك في الزمان ومن له ... بك واصفًا ذاك الجلال فيوصفا

حيث الوفود من الملائك أقبلوا ... حافين حولك في السرير وعُكَّفا
وتحملوك على الأشعة وارتقوا ... سِربًا يجوز بك الدراري موجفا
فوردت وردك في الخلود منعما ... والأرض مائدة عليك تأسفا
لم تلف قبلك أمة في مشهد ... يذْرو الرجال به المدامع ذُرفا
يمشون من حول الجنازة ضائقًا ... بهم الرحيبُ من المسالك مصرفا
متثاقلين من الوقار وإنما ... ساروا بطيفٍ ناحلٍ أو أنحفا
بحر من الأحياء نعشك فوقه ... فُلْكٌ يظلله اللواء مرفرفا
يبكون في آثاره العلم الذي ... آثارُهُ من رفعةٍ لا تُقتفى
سعت الخوادرُ حاسرات والأسى ... مُلْقٍ على الأبصار سترًا أغدفا
ولئن سفرن ولم يخلن فإنه ... خطب ألان بروعه صم الصفا
فزع الشباب إلى الشيوخ بثأرهم ... من دمعهم إن خانهم متكفكفا
ومن الغضاضة أن دعا داعي العلا ... بعد الفقيد فتى بهم فتوقفا
جزع النصارى واليهود لمسلم ... هو خير من والى وأوفى من وفى
بكوا المرجى في خلاف عارض ... ليزيل ذاك العارض المتكشفا
واشتد رُزْء المسلمين وحزنهم ... لما مضيت ولست فيهم مخلفا
من بعد كاتبهم وبعد خطيبهم ... يُعلي لهم صوتًا وينشر مصحفا
من يبرئ الإسلام من تهم العدى ... ويرد نقد الناقدين مزيفا
يبدي لأعين جاهليه فضله ... ويزيل ما يلد التناكر من جفا
ويثير من غضب الغضاب لمجده ... همما تعيد له المقام الأشرفا
لكن من أقلام جندك حوله ... سمرًا تهز لكل خطبٍ معطفا
ولعل حرًّا لا يدين به انبرى ... ليذود عنه خصمه المتعسفا

قِـفْ أيهـا النـاعي عليـه جمـوده ... فلقـد تجـاوزت الهـدى متفلـسفا
إن يعـتر الـشمس الكـسوف هنيهـة ... أيكـون منقـصة لهـا أن تُكـسفا
وهـل الكسوف سوى تعرض حائل ... يثنـي أشـعتها إلى أن يكـشفا
لم تنـزل الأديـان إلا هاديـا ... للعـاملين ورادعًـا ومثقِّفـا
بـشعارِ حـي عـلى الفـلاح ومـا بهـا ... أن قـصر الأقـوامُ عنـه فأخلفـا
وبكـل أمـر موجـب إصـلاحهم ... أن خـالفوه فـما استحال ولا انتفـى
قـد كـان للإسـلام عهـد بـاهر ... نلنـا بـه هـذا الرقـي مـسلفا
مـلأ الـبلاد إنـارة وحـضارة ... ومنـى الـسماحة عـوده مـستأنفا
فـالخيرُ كـل الخـير فيـه مقـبلًا ... والـشرُّ كـل الـشر أن يتخلفـا
يـدعو البقـاء إلى التكـافؤ بـالقوى ... بـين العنـاصر أو يهـين ويـضعفا
والخلـق جـسم إن ألـمَّ ببعـضه ... سـقمٌ ولم يـتلاف عـم وأتلفـا
بـشرى البريـة بعـد مُـزْمن دائهـا ... بـسلامة الإسـلام وهـي لهـا شـفا
إن أغـضبت تلـك الـسلامة جـائرًا ... أرضـت خبـيرًا بالحيـاة ومنـصفا
يـا مـن نهـضت بنـصره وأبَنْتَـه ... حـق الإبانـة هـل تبـالي مرجفـا
مـا زلـت في مـصر قـديم منـارة ... حتـى أنـار الكـون منهـا مُـشْرفا
مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها ... وأرى ترابـك مـن حنـين قـد هفـا
وكـأنني بـالقبر أصـبح منـبرًا ... وكـأنني بـك موشـك أن تهتفـا
مـصر التـي لم تحـظ مـن نجبائهـا ... بـأعز منـك ولم تعـز بأحـصفا
مـصرُ التـي لم تبـغ إلا نفعهـا ... في الحـالتين ملاينًـا ومعنفـا
مـصر التـي غـسلت يـداك جراحهـا ... بـصبيب دمعـك جاريًـا مـستنزفا
مـصر التـي كافحـت لـدَّ عُـداتها ... متـصدرًا لرماتهـا مـستهدفا

مـصرُ التـي سُـقْتَ الجيـوش مناقبـا ... ومُنـى لتكفيهـا المُغـير المححفـا
مـصرُ التـي أحببتهـا الحـب الـذي ... بلـغ الفـداء نزاهـة وتعففـا
حتـى مـضيت كـما ابتغيـت مؤلفـا ... مـن شـملها مـن مـا لم يكـن ليؤلفـا
أمنيـة أعيـت خلالـك دونهـا ... لـو لم يُـضافرها رداك فيـسعفا
وهـى التـي لـو أقـسمت لنـا بهـا ... شـعب يعـز بنفـسه مستنـصفا
مـن كـان أجـرأ يـوم كريهـة ... بـالحق لا شكـسًا ولا متـصلفا
مـن كـان أقـدر منـك تـصريفًا لمـا ... يعنـي الحكـيم مـدبرًا ومـصرفا
مـن كـان أطهـر منـك خلقًـا جامعًـا ... فيـه مهيـب الطبـع والمـستظرفا
مـن كـان أزهـد منـك إلا في الـذي ... يجـدي الـبلاد فتبتغيـه مُلْحفـا
مـن كـان أسـمع منـك مناعًـا لمـا ... تهـوى ومعطـاء لغـيرك مُـسرفا
مـن كـان أصـدق منـك لا متنـصلًا ... ممـا تقـول ولا تعاهـد مخلفـا
لهفي على فخر الصبي هادى النهى ... عـالي اللـواء حمـى المـروءة والوفـا
يـا مـن نعـى تلـك الفـضائل والعـلى ... أغـدت معـالمهن قاعًـا صفـصفا
لا لا وحقـك يـا شـهيد وفائـه ... ورجائـه كـذب النعـي وأرجفـا
مـا أنـت بالرجـل الـذي يمسي وقـد ... ملـئ الوجـود بـه ويـصبح قـد عفـا
إني أراك ولا تـزال كعهـدنا ... بـك في جهـادك أو أشـد وأشـعفا
ثـابر عـلى تلـك العـزائم ذائـدًا ... عـن مـصر تـضرب في الـبلاد مطوفـا
أصـدر صـحائفك التـي تحيـي بهـا ... نِـضْوَ الطريـق وتـدفع المتخلفـا
تجـري بهـا الأنهـار وهـي دوافـق ... همـمًا وتوشـك أن تطـم فتجرفـا
وتكـاد أسـطرها تهـب نواطقـا ... ويكـاد يعـزف كـل حـرف معزفـا
فـإذا حنـوت عـلى الحمـى متحببًـا ... فهـو النـسيم وقـد ذكـا وتلطفـا

وكـــأنما الألفـــاظ ممـــا خففـــت ... نقـــش المـــداد رســـومها وتحففـــا
تُـــستام مـــن أثوابهـــا أرواحهـــا ... وتعـــاف تحليـــة لـــئلا تكـــشفا
قـم للخطابـة في المجـامع وامتلـك ... تلـك النفـوس مروعًـا ومـشنفا
أعـد القـديم مـن الممالـك والقـرى ... ذكـــرى وعرفنـــا الحيـــاة لنعرفـــا
شـــدد عزائمنـــا وقاتـــل ضـــعفنا ... حتـــى نبيـــت ولا نـــرى متخوفـــا
مـــا هـــذه الآيـــات يرمـــي لفظهـــا ... شررًا وتهـوى الـشهب فيهـا أحرفـا
مـا ذلـك الترصـيع لـيس مرصـعًا ... مـــا ذاك التفويـــف لـــيس مفوفـــا
وحـــي بأهجيـــة إذ مـــا أطْلقـــت ... هبطـت رواسـب عنـه والمعـزى طفـا
تحيـــي حرارتهـــا ويهـــدي نورهـــا ... متماهـــــل الإشراق أو متخطفـــــا
تـــالله مـــا أنـــت الخطيـــب وإنـــما ... وقـف القـضاء مـن المنـصة موقفـا
عـن نطقـه تقـع الـصروف مواعظـا ... وكـــأمره أمـــر الزمـــان مـــصرفا
يـــا حبـــذا لـــو كـــل ذلـــك لم يـــزل ... لكنـــه حلـــم مـــضى مـــستطرفا
والآن نحـــن لـــدى ثـــراك نحجـــه ... متلهبـــين تـــشوقًا وتـــشوفا
نثنـي وهـل يـوفى ثنـاؤك حقـه ... وبـأي ألفـاظ المحامـد يكتفـى
مـاذا يعيـضك مـن شـبابك نظمنـا ... فيـك الرثـاء منـسقًا ومـصففا
ويعيض منك وكنت جوهرة الحمى ... صـوغ الكـلام مرصَّـعًا ومزخرفـا
يـا أخلـص الخلـصاء أبكـي بعـده ... كبكـــاء مـــصر تحرقًـــا وتلهفـــا
هـــذا مثـــال لاح يرعانـــا وقـــد ... كـشف الجـوى عنـه الحجـاب فأشرفـا
جـاد الهـلال برسـمه تاجًـا لـه ... وكـسته ناسـجة الطهـارة مطرفـا
كهـواك للأوطـان فلـيكن الهـوى ... لا مفـــترى فيـــه ولا متكلفـــا
يجـري عـلى قـدر المطالـب ناميـا ... ويجـل في مجـراه عـن أن يـصدفا

أنشأت من مصر الشتات بفضله ... مصر الفتاة حمى يعز ومألفا
أحدثت فيها أمة أندى يدًا ... للصالحات وبالعظائم أكلفا
عرفت أهليها حقيقة قدرهم ... وكفاهم من قدرهم أن يُعرفا
نفحات روحك خامرت أرواحهم ... فهم مرامك ساء دهر أو صفا
حصن أشم تساندت أجزاؤه ... علمًا وأمنه النُّهى أن ينسفا
فارقدْ رُقادَك إن ربك قد محا ... بك ذنب مصر كما رجوت وقد عفا

تمثال مصطفى كامل

اتجهت الأفكار منذ وفاة مصطفى كامل إلى إقامة تمثال له تقديرًا لجهاد مؤسس الحركة الوطنية، وبدأ الكثيرون بالاكتتاب للتمثال قبل أن تتألف لجنة لإقامته، وقد قدرت الأمة على اختلاف أحزابها فضل الزعيم، فاتجهت الفكرة إلى جعل المشروع قوميًّا لا يختص به حزب من الأحزاب؛ لأن مصطفى كامل كان زعيم حركة قومية لا زعيم حزب فحسب.

فتألفت لجنة لإقامة تمثاله واجتمعت في (١٦ فبراير سنة ١٩٠٨م) برئاسة إسماعيل باشا صبري الشاعر الكبير، ومن أعضائها محمد بك فريد، والدكتور محمد علوي باشا، وحسن بك عبد الرازق (باشا)، ومحمود بك أبو النصر، وعلي بك فهمي كامل، ومرقس حنا بك (باشا) والأستاذ ويصا واصف، وأحمد بك لطفي السيد (باشا)، ويوسف صديق بك (باشا) وإلياس بك عوض (باشا)، وفؤاد بك سليم (باشا)، وعبد العزيز فهمي بك (باشا)، وعمر بك سلطان (باشا)، وأحمد بك عبد اللطيف المحامي الشهير، وأخذت في جميع الاكتتابات للتمثال.

وعهد «فريد بك» نيابة عن اللجنة إلى المسيو «سافين» المثال الفرنسي الشهير ببايس صنع التمثال من البرونز، فأتمه في (إبريل سنة ١٩١٠م)، وعرضه في معرض الفنون الجميلة بباريس، فحاز الاستحسان العام، وهو يمثل الفقيد واقفًا يخطب مشيرًا بيده اليمنى ومرتكزًا باليسرى إلى تمثال لأبي الهول كأنه يوقظه، وعلى القاعدة صورة من البرونز تمثل مصر منصتة إلى الخطيب تشير بيدها اليمنى كأنها تطلب من العالم أن ينصت إليه مثلها، والصورة والتمثال آية في الفن والجمال.

ويبلغ ارتفاع التمثال دون قاعدته مترين وثمانين سنتيمترًا، ويبلغ مع القاعدة ستة أمتار وستين سنتيمترًا، وقد بلغت تكاليف صنعه ونقله (٢١٢٠ جنيهًا) عشرين ومائة وألفي جنيه.

وجاء التمثال إلى القاهرة في (يناير ١٩١٤م) على عهد وزارة محمد سعيد باشا، وطلبت اللجنة من الحكومة تخصيص ميدان من الميادين العامة لإقامة التمثال، ولكن الحكومة صمت آذانها عن تلبية نداء اللجنة، وظل التمثال سجينًا في مدرسة مصطفى كامل مدة أربع وعشرين سنة، حتى اقتضت إرادة الله عز وجل وتحت ضغط جماهير الشعب الإفراج عن التمثال وإقامته في ميدان عام من ميادين العاصمة، فقرر مجلس الوزارة بجلسة (أول سبتمبر سنة ١٩٣٨م) إقامة التمثال في ميدان العتبة الخضراء، وكان لهذا القرار رنة استحسان عام في أرجاء البلاد، وعدل مجلس الوزراء مكان التمثال فقرر بجلسة (٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٨م) إقامته في ميدان (سوارس) مع تغيير اسم الميدان وتسميته ميدان (مصطفى كامل).

حفلة إزاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل (١٤ مايو ١٩٤٠م)

وقد بنت الحكومة قاعدة التمثال في ميدان (مصطفى كامل) ونقشت على صدر القاعدة «مصطفى كامل باشا ١٨٧٤-١٩٠٨م»، وعلى الجانب الأيمن منها هذه العبارة المأثورة من كلمات الزعيم: «لا معنى للحياة مع اليأس، ولا معنى لليأس مع الحياة». وعلى الجانب الأيسر منها قوله: «إن من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان». وعلى الجانب الخلفي هذه العبارة: «اكتتبت الأمة بجميع طبقاتها في صنع هذا التمثال سنة ١٩١٠م، وفي سنة ١٩٣٨م قررت الحكومة إقامته في هذا الميدان تمجيدًا للذكرى».

وأقامت الحكومة التمثال على هذه القاعدة، واحتفلت برفع الستار عنه، على عهد وزارة علي ماهر باشا يوم (الثلاثاء ١٤ مايو سنة ١٩٤٠م) في حفلة فخمة، وألقى علي ماهر باشا رئيس الوزراء الخطبة الآتية:

«جئنا لنحيي تمثال مصطفى، فلنقف هنيهة خاشعين أمام الذكرى.

كلما ذكر مصطفى، ظهر اسمه في هالة من المجد، وانتشر ذلك النور الساحر الذي يملأ النفوس رهبةً وإجلالًا.

في هذه الساعة يطيب لنا أن نجتمع في ظل المبادئ التي أفنى نفسه وجسمه في سبيلها، في ظل الإخلاص الذي مات عليه فأحيا أمة ودفع شبابها إلى ميادين الكفاح والعلا.

نجتمع أمام ذلك التمثال الذي يحرك النفس وهو صامت؛ لأن جلال التاريخ وجلال الذكرى في شخصه يلتقيان.

كان مصطفى أول من حمل لواء الحرية بعد أن طوى زمانًا، وكان أول من صاح تلك الصيحة في طول البلاد وعرضها، صيحة التضحية، صيحة الحرية، صيحة الحب صيحة الحياة: «بلادي بلادي، لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي، لك عقلي ولساني، لك حبي وجناني، أنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر».

نقرأ اليوم خطب مصطفى، فلا نرى فيها أثر البلاغة والتنميق؛ ذلك أن بلاغته كانت روحانية بلا جسم، ليست بحاجة إلى صلة أو سبب مادي لتصل إلى النفوس وجوهًا.

ذلك أن حياة مصطفى قصيرة، لم تكن كحياة غيره من الزعماء والقادة، سلسلة أعمال توصف وتحلل، وإنما كانت هذه الحياة كلها، التي تعلو على كل حصر وتحليل، صوتًا يخيل إلى سامعيه أنه يهبط من السماء، صوتًا كصوت الماضي، رن في الوادي فانتبه، ولا تزال أصداؤه تتجاوب وتمتد بعد الموت.

وقد كان مصطفى يجمع بين إقدام الشباب، واتزان الكهول في الفكر.

وهذه المبادئ التي استمدها من وحي الوطن واتخذها شعارًا لجهاده قد دلت التجارب والمحن على أن راسمها كان بعيد النظر سليم التفكير.

كان مصطفى مقدامًا، يخلق الحماسة ويتعهدها لأنه يعلم أن الحماسة في حياة الأمم تنزل منها منزلة الروح من البدن، وأن الشعب إذا غابت عنه الحماسة غابت عنه الحياة، فكان يعمل ليله ونهاره كاتبًا وخطيبًا على تغذية العاطفة الوطنية وإيقاظ الجماهير التي كان يجذبها بشخصه وإيمانه وشجاعته.

كان مصطفى يحمل في قلبه صورة الوطن الحي أنى سار أو أقام، فكان قلبه مقتدرًا على جمع القلوب، تخفق كلما خفق، وتشاطره حمل السراء والضراء وكان الشباب - شباب الوادي وعدته- جنوده المجندة تأتلف حول لوائه، وكان هو قائدها وهاديها.

كان مصطفى شعلة ذكاء وحماسة، وكان خير محام عن خير قضية، وكان في دفاعه يهب لنصرة الحق والعدل، وكان جلدًا على الكفاح، لا يبرح يناضل حتى يصرع الباطل ويرمي السهم في مقاتله.

وقد صبر وجاهد واحتمل الأذى في سبيل مصر، في سبيل النيل ووواديه، في سبيل تلك القرى والمدائن الجائمة في حضن الوادي، في سبيل ذلك الأفق الضاحك بين جنات النخيل والأعناب، بين هزج السواقي وأغاني الفلاح.

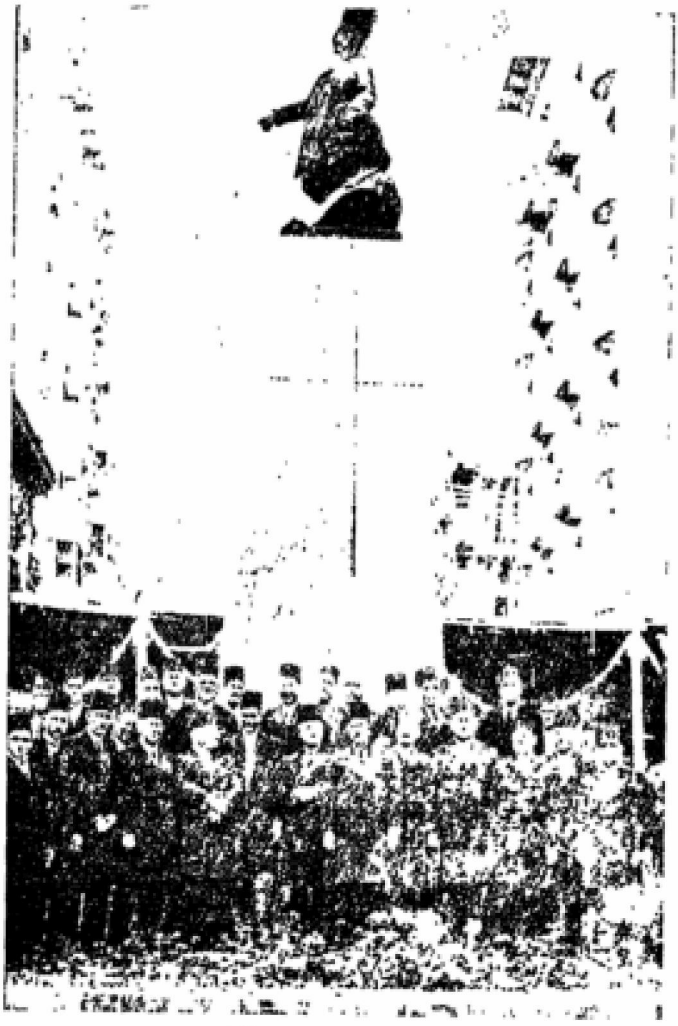

على قاعدة تمثال مصطفى كامل
يوم إزاحة الستار عنه – ١٤ مايو سنة ١٩٤٠

وترى فى الصورة: الدكتور اسماعيل صدقى بك، عبد الرحمن الرافعى بك، محمود خيرى باشا محمود جلال بك، الأستاذ عبد المقصود متولى، الأستاذ حسن حسنى كامل، عبد الملك حزة بك، انطون الجميل بك (باشا)، الأستاذ محمود العمرى، الأستاذ حسن شافعى الجيزاوى، اسماعيل العسيلى، على على بسيونى، شعبان الكاتب، على فهمى خليل، حسين رمزى، الدكتور يحيى الدرديرى، الدكتور منصور القاضى، الدكتور نصر فريد بك، محمد على المهندس.. الخ

وقد تغلغل حب مصر في فؤاد مصطفى؛ لأن حبه كان صادرًا عن عاطفة وعقل وعلم، وكان ذلك الحب لا تشوبه شائبة من مطمع في مادة أو جاه.

كان مصطفى مصريًّا صميمًا يحب مصر وفلاح مصر حافظ كيانها.

ذلك الفلاح الذي هو نحن وأنتم، الذي هو مصر من طيبة إلى الفسطاط والقاهرة، والذي طبع البلاد بطابعه، وانضمت كتلته على الغزاة، فأفنت شخصيتهم في ثناياها.

وقد كان المصريون في أدوار تاريخهم سلسي القيادة لكل زعيم يخرج من صفوفهم، ويعرف كيف يسوسهم، ويتخذ لنفسه نقطة ارتكاز في قلوبهم وفي صميم إحساساتهم وعواطفهم، وفي شجاعتهم وإيمانهم، وفي أرضهم ولغتهم، وقد ولد مصطفى في مصر، وحك جلده بأرضها الغراء طفلًا، ونشأ حرًّا، وعاش حرًّا.

وها نحن أولاء نقف أمام تمثاله ويخيل إلينا أن الحياة تدب وتتوثب في كل ذرة ساكنة منه، وأن وراء هذه المادة قوة خفية تدفع الشعب إلى غاياته الكبرى.

في هذا اليوم الذي تتطاحن فيه الأمم ذودًا عن كرامتها، وتدعيمًا لشخصيتها وحرياتها، نقف أمام تمثال مصطفى متعاونين متساندين في سبيل إعلاء كلمة الحق.

مات مصطفى، فكان موته أول شاهد على تغلغل الروح الوطنية في مختلف الطبقات، وأول دليل على أن في هذه الأمة قوة؛ بل قوى حيوية كامنة، إذا وجدت من يحركها ويتعهدها أتت بالمعجزات.

فلنذكر مصطفى، ولنلطف بتمثاله، ولنأخذ من موته معنى الحياة والحرية والأمل.

إنه وإن لم تتحقق أماني مصطفى كلها إلى اليوم، فإننا لا نشك لحظة في أن هذه الأماني ستتحقق على أيديكم، فقد أعلن الاستقلال وستكمل بإذن الله دعائم هذه الاستقلال وتتوطد».

وقد قوبلت هذه الخطبة بالتصفيق في شتى مواضعها، وعلى إثر إلقائها جُذب شريط متصل بالستار فانشق عن تمثال الزعيم العظيم، ودوى التصفيق في جنبات سرادق الاحتفال، فرددته الجماهير المحتشدة التي تجمعت خارج السرادق.

مقتطفات من أقوال الشعراء والكتاب
لمناسبة حفلة إزاحة الستار

قصيدة خليل مطران

تحية الشعر

أمنوا بموتك صولة الرئبالِ ... ماذا خشوا من فتْنَة التمثال؟
حبسوه عن مُقَلٍ إليه مشوقة ... فاضت أسى ودموعهن غوال
حتى أرادت مصر غير مُرَادهم ... وجلاء من أوفى بنيها جال
أتهيئ استقلال قومك جاهدًا ... وتُذَاد عنهم يوم الاستقلال
أنصفت بعض الشيء بل هي توبة ... في بدئها ولكل بدءٍ تال
فلقد تئوب وَجَدُّ غيرك عاثر ... فيم ادعى صلفًا وجدك عال
يا حُسْنَ عودك والكنانة حرة ... تلقاك بالإكرام والإجلال
أيروعُكَ الحشد الذي بك يحتفي ... من غر فتيان وصيد رجال
ماذا بثثت من الحياة جديدة ... في هذه الآساد والأشبال
بَعْث لموطنك العزيز رَجَوْتَه ... وسواك يحسبه رجاء مُحَال
خاطرت فيه بالشباب وبذله ... سَرَفٌ لمطلوب بعيد منال
أي مصطفى ولت سنون وما اشتقى ... شوقي إليك فهن جد طوال
عجب بقائي بعد أكرم رفقة ... زالوا ولم يشأ القضاء زوالي

هم صفوة الدنيا وكانوا صفوها ... فأحق حي بالأسى أمثالي

حزن بعيد الغور في قلبي فإن ... وجب الرثاء فإنما يرثى لي

ماذا أقول وهذه أسماؤهم ... وشُخُوصهم ملء الزمان حيالي

تعتادني في مَسْمعي أو ناظري ... وإلى يميني تارة وشمالي

إني لأحفظ عهدهم وأصونه ... في كل حادثةٍ ولست بال

وكأن حِسِّي حسهم فرحًا بما ... يقضي الحِمَى من حقهم ويوالي

كم في مغارسهم جنى ألفيته ... متجددًا يتعاقب الأحوال

سلوى أتاحتها مآثرهم، وقد ... يغدو الفراق بها شبيه وِصَال

وكذاك مجد العبقرية والفِدَى ... لا ينقضي بتحول الأحوال

أي مصطفى ما كنت كاملًا ... لو كان يُتَّصَف امرؤ بكمال

ماذا لقيت من الصِّبا ونعيمه ... غير المكاره فيه والأهوال

إني شهدت شهادة العينين ما ... عانيت في الغَدَوَات والآصال

متطوعًا تَسْخُو بما يُفْني القوى ... من جهد أيام وسُهْد ليالي

إذ قمت بالأمر الجسام ولم يكن ... فيمن أهَبْت بهم مجيب سؤال

حال التورع دون إغراء المنى ... زمنًا نما من مسعد وموال

والقوم في ظمأ ووعدك مطمع ... لكن يرون له رفيق الآل

تسعى ويعترض السبيل قنوطهم ... في كل حل منك أو ترحال

فتظل تضرب في جوانبه وما ... تلقي إلى نظر الحبوط ببال

لك دون ما تبغي مضاء مصمم ... لا ينثني، وبلاء غير مبال

حتى إذا وضح اليقين وصدقت ... دعواك آية ربك المتعالي

فتويت أظهر ما تكون على عدى ... مصر بعقبى دائك المنتال

هـزت منيتـك الـبلاد ولم تكـن ... بأشـد منهـا هـزة الزلـزال
فـالقوم مـن جـزع عليـك كـأنهم ... آل وقـد رُزِئـوا عزيـز الآل
كشف الأسى لهم الحجاب فأيقنوا ... أن الحيـاة مطالـب ومعـال
وتبينـوا أن الخنـوع مهانـة ... لا يـسْتَطَالُ بهـا مَـدَى الآجـال
لله حـسن بلائهـم لمـا أبـوا ... متـضافرين دوام تلـك الحـال
وتوثبـوا بعزيمـة مـصدوقة ... برئـت مـن الأحقـاد والأوجـال
يـردون حوضًـا والمنايـا دونـه ... مستبـسلين ضروب الاستبـسال
حتـى أتـيح الفـتح يجلـو حـسنه ... في يومـه إحـسان يـوم خـال
فـتح بـدا اسـمك وهـو في عنوانـه ... متخـضبًا بـدم الـشباب الغـالي
أيهـا شـهيد الحـب للبلـد الـذي ... لا أنـت سـاليه ولا هـو سـال
أبهـج بأوبتـك الـسنية طالعًـا ... في أفقـه كالكوكـب المـتلالي
الـذكر آفـاق سـحيقات المـدى ... ولزهرهـا المتألقـات مجـال
فـإذا دنـت منـا فتلـك عـوالم ... وإذا نـأت عنـا فتلـك لآلي
تطـوي مـن الأدهـار مـا لا ينقـضي ... وتجـول في الأفكـار كـل مجـال
أبـوار وجهـك طالعتنـا اليـوم مـن ... بـرج حللـت بـه لغـير زيـال
قـد أثبتتهـا مـصر بـين عيونهـا ... فالحـال متـصل بالاسـتقبال
نهـم الثـواب لـذي مـآثر في الفـدى ... فرضـت محبتـه عـلى الأجيـال
فتيـان مـصر وعهـدها غـير الـذي ... عانتـه في الأصـفاد والأغـلال
حيـوا مـديل حياتهـا مـن يأسـها ... ومـذلل الآلام للآمـال
حيـوا زعـيم اليقظـة الأولى بهـا ... وخطيـب ثورتهـا في الاسـتهلال
هـذي مواكبهـا وتلـك وفودهـا ... في ملتقـى ذي روعـة وجمـال

حفلت برمز نهوضها ومثاله ... ما لا تداني صنعه المثال
لكنها مهج بنته ولم تكن ... إلا ذرائعها فضول المال
وكَفَاهُ فخرًا أن ذاك المال لم ... يك مكس جاب أو تطول وال
رسم يَلُوحُ وفيه معنى أصله ... فيروع بين حقيقة وخيال
لان الحديد له فصاغ لعينه ... أثرًا على الأيام ليس ببال
كم في بليغ سكوته من عبرة ... أوفى وأكفى من فصيح مقال
هو خالدٌ ويظل مدره قومه ... في كل نازلة وكل نضال
عطف المليك وقد أماط حجابه ... رفع المقام إلى مقام جلال
أعلى الملوك مكانة أرعاهم ... لمكانة العلماء والأبطال

كلمة الأستاذ محمود العمري

رسالة مصطفى كامل

اليوم إذ يحتفل المصريون برفع الستار عن تمثال مصطفى كامل، إنما يحتفلون بصفحة من أمجد صفحات تاريخ مصر الحديث.

اليوم يسجل المصريون صفحة مصطفى في تاريخهم الرسمي بعد موته بما يقرب من ثلث قرن، وهي مرحلة من الزمن، إذا أصدر الشعب حكمه، كان صادقا غير متأثر بدعوة من الدعوات، وإذا حكم التاريخ بعدها لإنسان فإنما يكون ذلك لأنه صعد بعقيدته إلى مستوى الحقائق الأبدية التي لا يحدها زمان ولا مكان.

ولو كان مصطفى كامل رجلًا كسائر الرجال لنسيناه كما ينسى المرء أعزاءه، ولو كان رجل جيل معين أو مرحلة معينة لعصفت به رياح الزمن؛ ولكنه رجل أمة، والأمة وحدة تاريخه تشمل الأمس واليوم والمستقبل الذي لا نهاية له؛ بل هو رجل

جميع الأمم، إذ لا يصح في إحداها ما لا يصح في غيرها من شبيهاتها ما دامت جديرة بأن تسمى أمة.

وكيف يسمع المصري قول «سمجلي ريدز» قبيل الحرب مخاطبًا هتلر: «إذا كان عليك واجب نحو وطنك فلتعلم أن علي أيضًا واجبًا نحو وطني». ثم لا يشعر وكأنه يسمع قول مصطفى كامل إذ يقول: «إن كان أنصار التوسع في سلطة إنجلترا ومد نفوذها في الآفاق يريدون جعل سادتها عامة، فكيف يجد البعض من الأمور الخارقة للعادة مطالبتنا باستقلال وطننا؟».

ثم كيف يشاهد بطولة الفنلندي والبولندي ووطنيتهما ولا يشعر بالفخار لقول مصطفى كامل في «اللواء» سنة ١٩٠٤م حاثًّا على حب الوطن: «انظر تجد البولندي وقد مزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث، يجد ويعمل مفكرًا كل يوم بل كل لحظة في بولندا، يذكر تاريخها ويبكي أيامها الخالية، ويربي ابنه على حبها والتمسك بحقوقها، والفنلندي وقد لبس ثوب الحداد هو وبقية ذويه يوم قررت الروسيا ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الأمة».

لم يجد مصطفى كامل مبلغ حب الوطن بمقدار ما في الإمكان عمله في خدمته؛ إذ إن الوطن صوة روحية، ولا سبيل للقوى المادية إلى النيل من الوطنية الصحيحة، فإذا عجزت الأمة الرشيدة عن الوصول إلى حقها لم تقل عن المرحلة التي لا تتخطاها جهودها في وقت معين أنها محط آمالها وغاية الوطنية، على حد قول القائل: «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون».

ولم يقف بحق بلاده عند ما يمليه عليه إدراك معاصريه؛ بل عمل على رفع مستوى هذا الإدراك إلى مستوى رسالته، وكان مؤمنًا بمنطق الوطنية الذي يجعل حق الوطن كحق الفرد لا ينتهي إلا عندما يكون فيه حد لحقوق وطن آخر.

نشرت «النيويورك هرالد» للمسيو سيمون في سنة (١٨٩٧م) مقالًا عن مصطفى كامل جاء فيه: «إن الوطن بيننا نحن الأوربيين الراقين عظيم جليل محترم، مفضل على

الحياة والمال والولد، فما بالنا نحتقره عند غيرنا، ولا نود إلا أن نحتكر العواطف الشريفة لأنفسنا؟».

وقد علقت الجريدة على هذه الرسالة بكلمة جاء فيها: «ومن عرف أن مصطفى كامل ليس بغني كبير ولا وزير حكومة ذات سلطان، قال معنا إنه نابغة ككل عظماء الرجال الذين يهيئهم التاريخ من حين إلى حين، إلى الأمم المضطهدة المظلومة ليهدوها طريق السداد، وإنه إذا كان المصريون إلى اليوم في نظر الساسة لا يستحقون ما يبتغونه، فإننا نؤكد من جديد أن مصطفى كامل الذي حادثه مراسلنا في الأستانة في العام الماضي، لا يقل علمًا عن أعظم سياسي في أمريكا وأوربا؛ ولكن لسوء حظ مصر أنه جاء في الزمن الذي بلغ فيه حب الحياة المادية مبلغًا عظيمًا.

لقد تصدى مصطفى كامل لما لم يتصد له الذين وقفوا موقفه من الأمم الأخرى؛ إذ كان عليه أن يدعو إلى تشييد كل شيء في صرح الوطنية، لذا كانت دعوته شاملة قام فيها بكل مقومات الحركات الوطنية مما يضطلع به في تلك الأمم رجال عديدون في مختلف نواحي نهضتها، فبعضهم ينهض بالتعليم الوطني، وبعضهم الآخر ينهض بالأدب الوطني وفريق ينهض بالفنون، وآخرون ينهضون بالإصلاح الديني أو الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي، ثم تلتقي هذه الجهود جميعها عند غاية واحدة هي النهضة الوطنية العامة.

نعم كان على مصطفى كامل أن يقوم بما تقوم به أجيال في مختلف النواحي، فهو شاعر مصر الوطني، يتغنى بجمال منظرها واعتدال جوها، ويزداد هيامه بها كلما اشتدت عليها المحن، وكأنه قرأ ما قاله الشاعر الإنجليزي العظيم: «أحبك يا إنجلترا على كل ما فيك من عيوب» فكان يقول: «هل الوطنية فضيلة هناك ورذيلة هنا؟ هل إنجلترا أحق بحب بنيها من مصر».

وهو المشبه لمصر بالأم المريضة وحولها أبناؤها تقول لهم: ألا فاسعفوني، وبالدار شبت فيها النيران تنادي بلسان الحال أربابها: أن اتحدوا في إطفاء اللهب.

وهو مربيها الوطني بلسانه وقلمه، وبالدعوة إلى توجيه التعليم إلى المثل العليا التي لا يكون بدونها تعليمًا، وإلى إنشاء الجامعة والحث على الإكثار من المدارس لتعليم الشعب، قائلا: «إن بين أبناء الفقراء الذين سد الاحتلال في وجوههم أبواب العلم والنور، رءوسًا لو تحلت بالعرفان لكانت فخر مصر إلى أبد الزمان، وليذكر ذوو الإحساس والوجدان أن في مصر كنوز لم تستخرج للآن، وأنها لو أخرجت للناس لملأت الأرض نورًا، وأن هذه الكنوز مدفونة في بيوت الفقراء»، وهو مؤرخ مصر الوطني يذكر أبناءها كل آن بمجدها السالف وبتراث الآباء والأجداد.

وقد حصل مصطفى كامل على نصيب وافر من الثقافة الغربية، أتاح له وهو شاب أن يخطب ساعات باللغة الفرنسية ويكتب الافتتاحيات في أمهات صحف فرنسا، فلم يدفع به إلمامه بمدنية الغرب إلى حب الفناء في دولة من دوله، بل كان مما قاله: «لا جرم أن أنفع درس يحتاج إليه المصري من أوربا هو الوقوف على قوة الإحساس الوطني في البلاد على اختلافها، فأهل تلك البلاد على تفرق مشاربهم وأهوائهم يحبون بلادهم حبًّا شديدًا، ويستقبل الفرد منهم الموت في سبيل خدمة بلاده راضيًا مسرورًا». وهكذا لم يقل في قرارة نفسه: هذه بلاد عظيمة فيجب أن أكون عبدًا لها؛ بل قال بلسان الحال والمقال: هذه بلاد عظيمة فلأبلغن بوطني ما بلغت من رفعة وعلو شأن.

ولهذا كان أكبر المناضلين عن الإسلام بقوة بيانه، وكان فخورًا بمصريته وبأنه «ابن ضابط شهم من أبناء الفلاحين»، ومما قاله في اعتزازه بقومه: «يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستبعد كالشعب المصري مما لا يليق بإنسان؛ ولكن أي شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء أمة سبقت كافة الأمم؟». وقال أيضًا: إن الوطنية تظهر فيما يعانيه الوطن من الشدائد لا في الرخاء.

كان مصطفى كامل يملك نفسه في مواقف الشدة، فأقام على من يتهمونه بالتطرف أقوى الحجج، على أن هذا التطرف لم يكن إلا التمسك بحقوق الوطن وأنهم لم يقصدوا بكلمة الاعتدال إلا التساهل في هذه الحقوق.

كان يهيب بالقوم إلى خدمة بلادهم خدمة إيجابية ويبث فيهم أنه لا يكفي في شرعة الوطنية أن لا يؤذي الإنسان وطنه؛ بل إن المرء لا يكون بريئًا من ذنب تأخر بلاده إلا إذا عمل على رفعتها، وأن كل مصري مسئول عن مصر، وأنه لا يليق بأي إنسان أن يقول: إن هذا النصح صحيح ولكنه موجه إلى غيري؛ إذ الوطن موجود في ضمير كل شخص.

قال ردًّا على بعض من خشوا ألا تكون رسالته قد نفذت إلى قلوبهم لأنها رسالة عقيدة: «يقول البعض: إن المناداة بالوطنية كلام في كلام، ونسي ذلك القائل أن أهم الأعمال البشرية وأرقى الجهود الإنسانية تنحصر في إدخال عقائد جديدة في النفوس؛ لأن العقيدة تحرك الجبال، ومن قال ضد ذلك فقد أنكر الديانات وتأثيرها، والتاريخ وأحكامه، والعوامل الفعالة في الشعوب كلها».

ولقد أصبحنا اليوم نذكر بذكر مصطفى كامل جميع الحقائق التي لمسناها في شئوننا، فإذا نظرنا في أحوالنا الاقتصادية، رأينا المصلحة الوطنية ماثلة أمام أعيننا، وإذا تصدينا لشئون التعليم وجدناها لا تستقيم في غير الوضع الوطني، وإن الفرد إذا أراد في أية ناحية من نواحي الحياة، أن يرفع من شأن نفسه لم يجد لذلك سبيلًا إلا برفع شأن الوطن.

محمود العمري

قصيدة أحمد محرم

هذا الذي شرع الجهاد لقومه

هتف البشير به، وحان الحينُ ... فأضاء وجه، واستنار جبينُ
وبدت مواكبه حسانًا طلقة ... فشدا اللهيب، وغرد المحزون
ويحي، أأنت انشق قبرك فانقضى ... عبث الخطوب، ورأيها المأفون
إن غِبْتَ عن نظر العيون هنيهة ... فقلوبنا الحرَّى عليك عيون
ماذا تظن بك البلاد وأهلها ... تلك القيامة، لو يكون يقين
مَنْ أطلق الأفكار من أوهامها ... أيظل طول الدهر وهو سجين
أَوَلَمْ يقلوا: نَكْبة نزلت بنا ... هيهات يكشفها فتى مفتون
ألّه جنود حوله محشودة ... وبَوَارِج مبثوثة وسَفِين
هذا الذي بعث الشعور، وبثه ... ملء «الكنانة» والشعور دفين
نادى: بلادي، فاستجابت أمة ... ليست بغير هوى البلاد تدين
تبغي الحياة عزيزة ويغيظها ... أن يُسْتَبَاح من الليوث عَرِين
أَبَتِ القعود مع الخوالف بعدما ... أخذ «اللواء» القائدُ المأمون
ومضى يذود اليأس عن آمالها ... ويُعَلِّم الأحداث كيف تلين
هذا الذي شرع الجهاد لقومه ... فهدى الكتائب نهجه المسنون
إن المضلل في الحياة لمن يرى ... أن الحياة وساوس وظنون
هي ما رأيت، فكل شيء دونها ... إن كنت تكره أن تُضَام يَهون
إنا وفينا للبلاد، فلم نحن ... والدهر يظلم والخطوب تخون
نسخو بأنفسنها، نريد حياتها ... إن صَدَّ هياب، وكف ضنين

جوائز مصطفى كامل

١- المباراة الأدبية

لمناسبة حفلة إزاحة الستار عن تمثال (مصطفى كامل) تبرع الوطني الكريم الأستاذ «محمد محمود جلال» بمبلغ خمسين جنيهًا تعطى مكافأة لمن يجوزون قصب السبق في مباراة أدبية موضوعها (جهود مصطفى كامل في نواحي النشاط الإنشائي القومي وبخاصة في التعليم والاقتصاد والاجتماع، وعلاقة ذلك بدعوته الوطنية). وكانت شروط المباراة:

١ - أن يكون المشترك فيها شابًّا مصريًّا لا تزيد سنه عن ثلاثين سنة.

٢ - أن لا تزيد الكتابة في موضوع المباراة عن عشر صحائف من القطع الكبير.

٣- أن تقدم المواضيع إلى لجنة المباراة التي ألفت من: أنطون الجميل بك، عبد الرحمن الرافعي بك، فكري أباظة بك، الأستاذ محمود العمري، في مدة ثلاثة أشهر من تاريخ الإعلان عن المباراة. وقد وزعت الجوائز في حفلة فخمة أقيمت يوم (١٠ فبراير سنة ١٩٤١م)، وهو يوم الذكرى الثالثة والثلاثين لوفاة الزعيم، وفاز في المباراة كل من الأستاذ «نجيب تاوفيلس» الموظف بمصلحة السكك الحديدية، «علي منصور» الطالب بكلية الحقوق، الأستاذ «لبيب السعيد» الموظف بتفتيش مراقبة القطن بالدقهلية، الأديب «محمد الخالد» ببني مزار.

٢- جائزة كلية الحقوق

وتبرع حفظه الله بجائزة أخرى (سنوية) قيمتها عشرة جنيهات سميت (جائزة مصطفى كامل) تمنح كل عام لأول ناجحي الليسانس في الدور الأول لكلية الحقوق، وهي الكلية التي بدأ بها الفقيد دراسته العليا، وأرسل إلى عميد الكلية خطابًا بذلك وأرفق به صورة الاعتماد الذي خصصه ببنك مصر عن قيمة الجائزة، وبموجبه يصرف

المبلغ في شهر مايو عن كل عام، فورد إليه خطاب رقيق من حضرة العميد مع قبول هذه الجائزة الكريمة.

٣- جائزة كلية تولوز

وتبرع أيضًا بمبلغ ألفي فرنك لأول الفائزين في سنة (١٩٤٠م) بكلية الحقوق بتولوز، وهي الكلية التي أتم فيها الفقيد دراسته ونال منها شهادة الليسانس سنة (١٨٩٤م)، وكتب بذلك خطابًا إلى وزير فرنسا المفوض في مصر وأرفق به قيمة الجائزة، فتلقى خطابًا من الوزير المفوض بقبول الجائزة وشكره على هذه المبرة.

كلمة الأستاذ محمد محمود جلال في حفلة المباراة

وإنا ناشرون هنا كلمة الأستاذ «محمد محمود جلال» التي ألقاها في حفلة المباراة الأدبية؛ قال:

«سادتي الأجلاء: أيها المتسابقون النجباء.

حفظنا عن أستاذنا وزعيم الوطنية مصطفى كامل «أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها، وأن الروح الوطنية إذا تمكنت من كل مصري فتحت المدارس العلمية وظهرت آثار النخوة والهمة والتضامن في كل جهة وناحية، واتحدت الأمة في الغايات والمقاصد وازدادت ثروتها في المال والعلم والوطنية والوئام».

وإذا استجبنا بتوفيق الله إلى هذه الدعوة وهديت لها قلوبنا، وصبغت عليها أرواحنا، فإنما إليها يرد الإطراء الذي شرفني به زملائي وأصدقائي؛ لأن ما فكرت فيه وما قمت به نتيجة لاستيعاب هذه التعاليم التي مكنتها تضحيات فريد وأخلاق فريد، فرحمة الله في كل مناسبة على البطل الخالد الذكر «مصطفى كامل».

لقد استخرت الله قاصدًا من هذه المباراة إلى تسابق الشباب من هذا الجيل إلى كدح أذهانهم وتوجيه أبحاثهم في سبيل المثل العليا واضحة الصورة في مصطفى كامل، وهي الوطنية الشاملة التي طبع الله عليها روحه.

جاءت هذه الكلمات على لسان مصطفى كامل لآخر عهده بخطاب جامع، فكانت وصية لها قيمتها وخلودها، كشف لنا كيف كانت الوطنية التي دعا لها وطنية عامة شاملة غير مقصورة على ما يسمى بالنشاط السياسي، ولو قصرت عليه لكانت سطحية غير منتجة، ولكان تحديد الدعوة به تضييقًا على الطبيعة ومجافاة لحقائق الوطنية وتضييعها لثمراتها.

أذكر لأحد كبار كتاب الغرب قوله: إن ما في الإنسان من قوة ليس ناتجًا عن اليد وحدها، وإنما هي فعل قوة البنية جميعًا ممثلة في اليد، فإذا استطعت أن تحمل ثقلًا عظيمًا في يدك، فإنما تتأتي لك القوة لأن القلب يقوم بوظيفته والمعدة تؤدي عملها، وكذا سائر أعضاء بدنك تتآزر في سبيل القوة التي كانت يدك مظهرها وأداة تنفيذها.

من أجل ذلك تطرقت الوطنية الممثلة في مصطفى كامل إلى ميادين العلم والتاريخ والاقتصاد وأوضاع المجتمع تحييها وتقومها على الغزار الوطني، ترأب أصداع القائم منها، وتقديم الجديد على الأساس القويم، محافظة عليها مما تتنوع به محاولات الخصم في هذه الميادين، فينشئ بالتعليم جيلًا يسيغ حكمه وبتزييف التاريخ يهدم من ثقة الشعب بنفسه ويهون عليه الوضع المراد كما يوغل في شئون الاقتصاد يوطئها لغير المصلحة الوطنية ويوجهها إلى نفعه بحيث تعد في الإنتاج والاستيراد مرتبطة به بفعل الزمن من حيث لا تدري، ثم يعمد إلى مصطلحات الاجتماع يبهظ كاهلها بتقاليد جديدة منحرفة وإذاعات وصياغات جديدة تجر بضعاف النفوس إلى ناحيته، وبكل هذه الوسائل مجتمعة يصل إلى خلق الوهم في الشعب، ثم إلى أن يكون أداة السيطرة عليه، حتى إذا رجع القوم إلى حال اطمأنوا إليها زمنًا ظنوا في حضانتها أنهم غير جديرين بغيرها وظنها البعض منهم نعمة وطويت الثقة بالنفس.

ولنستمع هنا مرة أخرى لوصية (مصطفى كامل) في هذه النتيجة التي كانت أخشى ما خشي على بلاده: إن كل قول أو عمل يؤدي إلى إضعاف الروح المعنوية وهدم جزء أو كل من ثقة الأمة بنفسها وبمستقبلها هو أكبر أذى يلحق البلاد».

فمصطفى كامل حريص لدعوته ولنجاحها على المثل الأعلى للفرد ولشعب وادي النيل، وهو لذلك يضفي على كل ناحية من مسالك الدعوة ما ينفي عنها الأشواك الغريبة والهنات التي تسيء إلى المستوى المرتقب لأمته، فالاستقلال عنده إذن غاية تكرس لها الجهود ويعني بها الفكر وتثمر الظروف بقدر ما هو وسيلة لا بد منها للنهوض بالنواحي المختلفة، وتمكين الأمة على الأسس الصحيحة من كل مرافق الحياة على الوضع الذي يلائمها هي دون تعلق بغيرها. على أن مصطفى لم يعلق مطالبته بالاستقلال على بلوغ الغاية في تلك النواحي كما هو الحال في الأمم المستقلة؛ لأنه لا يرتب الحق الطبيعي في الحرية على مستوى معين تكون الأمة ملزمة بإثباته أمام الغير، متى كان ذلك الغير هو المتحكم في وسائل نهوضها. وإن لجهاد مصطفى في جميع هذه النواحي معنى لا يسمو عليه أي معنى من المعاني التي يعيش الأبطال لتحقيقها وتمثيلها؛ إذ كان دليلًا على فنائه في المثل الأعلى فناء تامًّا مع تشعب جهوده في جميع نواحي الوطنية على ترامي أطرافها ونفوذ إشعاعها جيلًا بعد جيل، أقول: إن هذا المعنى المتجلي في ذلك الرجل أو ذلك المثل الأعلى الممثل في رجل دليل على أنه لم يعش عيشة الرجال المحدودة بأشخاصهم وأعمارهم.

سادتي: ترون اليوم بينكم هذا الرهط الكريم من الشباب الذي تنبأ به مصطفى كامل وعمل له، يكد ويتعب ليضع يده على كنوز الفقيد في جهاده المدخر لأمته وينفقرون من وقتهم منبئين في نواحي البلاد في زمن عز فيه الميل إلى البحث، ألا إن المرء إذا عظمت قوة روحه فترامت نواحيها وانبعثت أضواؤها في المدى، تناولت جميع الأرجاء وامتدت في الزمان فشملت آثارها ومراميها مستقبل الأيام.

إن رجلًا كهذا ليس برجل عادي؛ ولكنه تيار من تيارات التاريخ، وقوة من قوى البشرية الخالدة. هذا هو مصطفى كامل الذي نحتفل اليوم بذكراه.

ضريح مصطفى كامل

أقيم ضريح مصطفى كامل القديم في المدفن الذي شيده الزعيم لوالدته بشارع المغافر بمدافن الإمام الشافعي، وقد شيعها إلى مرقدها الأخير سنة (١٩٠٧م)، ودفن إلى جوارها سنة (١٩٠٨م)، ومن يومئذ لم تعمل يد في إصلاح هذا المدفن أو تجديده، حتى أخذ التصدع يظهر في سقفه وجدرانه سنة (١٩٣٩م)، وصار يخشى على الضيح الطاهر أن يستهدف للأمطار والأعراض الجوية في شتاء ذلك العام، ففكرت مع لفيف من إخواني في تدارك هذا التصدع، وألفنا في أواخر سنة (١٩٣٩م) لجنة لإصلاح الضريح، وتم لها جمع مبلغ يسير اكتتب به بعض تلاميذ الفقيد وأنصاره والمعجبين به، فرممنا ضريحه ترميمًا جزئيًّا، ولم يعد مع ذلك في حالة تليق بمكانة الزعيم، فاقترحت في مجلس الشيوخ بجلسة (١٠ مايو سنة ١٩٤٤م) لمناسبة نظر ميزانية وزارة الأشغال اعتماد مبلغ خمسين ألف جنيه لتشييد مدفن جديد يضم رفات الزعيم، وقلت في هذا الصدد ما يأتي (نقلًا عن مضبطة الجلسة):

«أرجو أن تسمحوا لي من وقتكم بخمس دقائق لأعرض اقتراحًا بمناسبة نظر ميزانية وزارة الأشغال العمومية، وأريد أن أشرح هذا الاقتراح أولًا كي أمهد الطريق إلى عرضه.

وضعت الحكومة سنَّة حميدة في السنوات الأخيرة وهي تخليد ذكرى عظماء الرجال، ولذلك أقرت فيما يتعلق بتخليد ذكرى المغفور له سعد زغلول باشا عدة مشروعات منها تشييد ضريح له وإقامة تمثالين أحدهما بالقاهرة والآخر بالإسكندرية، وأنفقت الحكومة على توالي السنين مبالغ كبيرة لتخليد ذكراه، وعلى ما أذكره أن الضريح قد تكلف لغاية الآن حوالي (٢٠٠,٠٠٠ج)، وهذا بالطبع تنفيذًا للسنة الحميدة التي اتبعتها الحكومة، وأمس فقط عرضت علينا مشروع قانون بفتح

اعتماد إضافي بملغ (٢٧٠٠٠ج) في ميزانية هذا العام لشراء منزل المغفور له سعد باشا في مصر «بيت الأمة»، والمنزل الذي ولد فيه الفقيد بإبيانه وضمهما للمنافع العامة،كل هذا عمل حميد تشكر عليه الحكومة، وهذا ما شجعني على أن أتقدم لحضراتكم باقتراح تخصيص مبلغ (٥٠٠٠٠ج) في ميزانية وزارة الأشغال لتشييد ضريح للمغفور له مصطفى كامل باشا؛ لأن ضريحه لا يزال حالته كما بناه لوالدته سنة (١٩٠٧م) إذ توفيت في السنة المذكورة، فبنى هذا الضريح لها، ثم عاجلته المنية في (١٠ فبراير سنة ١٩٠٨م) فدفن إلى جوار والدته في القبر الذي بناه لها، ومن يومئذ لم تفكر حكومة من الحكومات المتعاقبة في أن تشيد الضريح الذي يليق بالزعيم الأول الذي بعث الحركة الوطنية من مرقدها، ولعل القدر قد باعد بين الحكومات المتعاقبة وبين القيام بهذا الواجب، فاتباعًا للسنة التي جرت عليها الحكومة في تخليد ذكرى سعد أتقدم باقتراح إضافة مبلغ (٥٠٠٠٠ج) في ميزانية وزارة الأشغال لتقيم ضريحًا للمغفور له مصطفى كامل؛ ذلك أن تقدير عظماء الرجال هو فعلًا واجب محتم ومقدس؛ ولكن أجمل من هذا الواجب أن يكون تقدير هؤلاء العظماء عامًّا وشاملًا، أساسه العدل والإنصاف، فإذا كانت الحكومة قد أدت واجبها نحو سعد زغلول فأرجو أن تؤدي واجبها نحو مصطفى كامل. إن ضريح مصطفى كامل يا حضرات الزملاء الأعزاء قد آل إلى حالة لا تتفق ومكانة الزعيم الأول للحركة الوطنية، ولا تتفق مع حسن تقدير البلاد لعظمائها الراحلين، وأرجو إذا كان من حضراتكم من يريد أن يستوثق من هذا الحال أن يتفضل بزيارة هذا الضريح، ولعل الوقت قد آن لكي تعمل الحكومة عملًا -ولنعمل نحن أيضًا عملًا- يمكن أن نسد به هذا النقص الكبير، ولا أريد أن أطيل في التدليل والبيان في هذا المقام، ولكني أستسمح حضراتكم في أن أتلو على مسامعكم كلمتين للمغفور له سعد زغلول في تقدير المغفور له مصطفى كامل.

«رئيس المجلس (على زكي العرابي باشا) لا ينازع أحد في ذلك». عبد الرحمن الرافعي بك.

قال سعد زغلول رحمه الله في خطبته بالسرادق يوم (١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣م):

«لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم، لا أقول ذلك ولا أدعيه؛ بل لا أتصوره، إنما نهضتكم قديمة تبتدئ من عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد علي، وللحركة العرابية فضل عظيم فيها، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغاني وأتباعه وتلاميذه أثر كبير، وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها، وكذلك المرحوم فريد بك».

وقال في خطبته بفندق شبرد يوم (٢٠ إبريل سنة ١٩٢١م):

«إني أعمل أن البلاد تصبو إلى الاستقلال، وأن حركتها الاستقلالية بدت من زمن طويل خصوصًا من يوم أن ظهر فيها مصطفى كامل وتلاه المرحوم فريد بك، هؤلاء أسسوا وأيدوا ما أسسوا في النهضة الحاضرة.

فواجب تقدير الزعماء يا حضرات الزملاء الأعزاء يقتضينا أن نقدرهم جميعًا، وأن يكون تقديرنا مبناه العدل والإنصاف، فإذا كانت قد مضت هذه السنوات الطويلة ولم تفكر حكومة من الحكومات في إصلاح هذا الضريح أو تشييده أو تعميره، فأظن أن الوقت الحالي هو أنسب الأوقات لكي نتلافى ما فات الحكومات السابقة، لذلك أتقدم بهذا الاقتراح، وأرجو من حضراتكم الموافقة عليه.

وزير الأشغال العمومية (عثمان محرم باشا) يسرني أن أقرر لحضرة الشيخ المحترم عبد الرحمن الرافعي بك أنني أول من يحترم ذكرى المرحوم مصطفى كامل باشا، وقد كانت تجمعني به صلات شخصية، وأقرر أن حكومة الوفد تسير على سياسة المغفور له سعد زغلول باشا تعرف فضل مصطفى كامل باشا، وأقول: إنه لا داعي لإضافة المبلغ الذي يطلبه حضرة الشيخ المحترم عبد الرحمن الرافعي بك لتشييد ضريح المغفور له مصطفى كامل باشا إلى ميزانية وزارة الأشغال؛ لأن في الميزانية الحالية مبالغ تسمح بتنفيذ ما يطلبه حضرة الشيخ المحترم، وأعد لحضرته بتنفيذ اقتراحه في ميزانية السنة الحالية فورًا (تصفيق عام).

وقد وضعت الحكومة من يومئذ تصميم المدفن الجديد، وأقيم في ميدان صلاح الدين بجوار القلعة، وتم تشييده في أواخر سنة ١٩٤٩ (انظر صورته ص٣١٩).

أما ضريح محمد فريد القديم فهو في مدفن العائلة بجوار مقام السيدة نفيسة رضي الله عنها، وقد أقيم القبر على عجل، بقي طوال السنين عرضة للعراء والأمطار في حالة لا تتفق ومنزلة الزعيم الشهيد الذي ضحى في سبيل مصر بماله وصحته ونفسه وحياته، وقد اقترحت أن ينقل إلى جوار مصطفى كامل، فقرر مجلس الوزراء في (١٨ سبتمبر سنة ١٩٤٩م) نقل رفات المرحوم محمد بك فريد إلى جوار مصطفى كامل بالمدفن الجديد، وهكذا يتاح للزعيمين العظيمين والصديقين الوفيين أن يلتقيا بعد طول النوى، ويضمهما قبر واحد، بعد أن فرق الزمن بينهما نيفًا وأربعين سنة، وأصبح الضريح الجديد: ضريح مصطفى وفريد»[1].

الاحتفال بنقل رفات مصطفى كامل إلى الضريح الجديد (١٠ فبراير سنة ١٩٥٣م)

وقررت حكومة الثورة (ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢م) تقديرًا للزعيم مصطفى كامل الاحتفال بنقل رفاته من مدفنه الأول بحي الإمام الشافعي إلى ضريحه الجديد، وحددت لهذا الاحتفال يوم (١١ فبراير سنة ١٩٥٣م).

و(١١ فبراير) هو يوم ذكرى تشييع جنازة الزعيم لأول مرة سنة (١٩٠٨م)، ففي مساء (١٠ فبراير سنة ١٩٥٣م) نقل رفاته من مدفنه إلى دار اللواء بشارع الدواوين (مدرسة مصطفى كامل الأميرية الآن) ووضع الجثمان الطاهر في الغرفة التي لقي فيها ربه.

وفي عصر اليوم التالي -١١ فبراير سنة ١٩٥٣م- شيعت الأمة جنازة الزعيم للمرة الثانية من دار اللواء إلى مدفنه الجديد في احتفال مهيب اشتركت فيه الحكومة

(١) ضم الضريح رفات المؤلف «عبد الرحمن الرافعي» حيث دفن جثمانه به يوم (٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦م) غداة يوم وفاته.

والشعب، وكان يومًا مشهودًا، فقد مضت خمس وأربعون سن على انتقاله إلى الرفيق الأعلى حتى سنة (١٩٥٣م)، لقد تعاقبت السنون والأيام على وفاته وزادت مبادئه رسوخًا، وذكراه خلودًا، وكذلك شأن المبادئ الصالحة والأفكار السامية التي تنهض بالأمم والإنسانية تزداد على مر الزمان ذيوعًا وثباتًا واستقرارًا.

الاحتفال بنقل رفات محمد فريد إلى جوار مصطفى كامل (١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣م)

وقررت حكومة الثورة أيضًا الاحتفال يوم (١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣م) بنقل رفات الزعيم محمد فريد إلى جوار زميله في الجهاد مصطفى كامل: في هذا اليوم احتفلت مصر في موكب رائع بنقل جثمانه من مدفنه الأول بحي السيدة نفيسة إلى جوار الزعيم الأول، لقد فرق الموت بينهما طوال السنين، منذ وفاة مصطفى كامل سنة (١٩٠٨م)، وبقي محمد فريد يحمل الراية من بعده ويواصل الجهاد الذي بدأه مصطفى كامل، حتى أضناه الجهاد وانتقل إلى الرفيق الأعلى في (١٥ نوفمبر ١٩١٩م)، وظل الزعيمان الوفيان بعد وفاتهما تفصل بين جثمانيهما الأيام والأعوام، حتى اجتمعا في مقامٍ واحدٍ، يضمهما قبر واحد، التقيا بعد طول النوى، فعليهما وعلى الشهداء السلام!

الضريح الجديد، لمصطفى وفريد – بميدان صلاح الدين، بجوار القلعة
نقل إليه رفات مصطفى كامل فى فبراير ١٩٥٣، ونقل إليه رفات محمد فريد فى نوفمبر ١٩٥٣ وبجوارهما ضم جثمان المؤلف «عبد الرحمن الرافعى» فى ٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦.